رواية

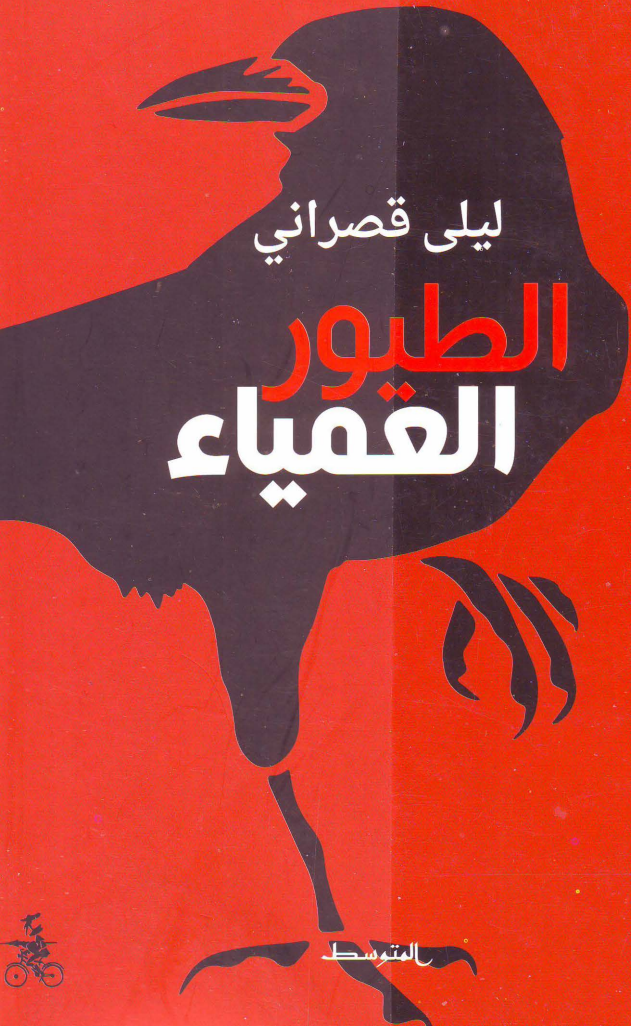

ليلى قصراني

الطيور العمياء

المتوسط

من الرواية

أحلف لك بشاربي هذا بأني سأقتلك حينما ترجع أنت والأكراد الذين معك». قال ممتاز آغا، وهو يبرم طرف شاربه الكثّ، ثم وجّه كلامه للعساكر الأكراد: «سيقتلونكم، أيها الخونة، هم يحتاجونكم؛ لأنهم يجهلون الطرق، واستعانوا بكم، حالما يرجعون، سيتخلّصون منكم».

بعد قليل، أطلق أحد الضباط رصاصة في الهواء مهدداً بها الزعيم الكردي ورجاله. ضحك ممتاز آغا ضحكة قوية قائلاً: «لا أخاف، لا من الموت، ولا منكم، سأموت، وأذهب إلى الجنة، وأنتم سوف تموتون، وتذهبون إلى الجحيم».

أطلق الضابط رصاصة، وأصابت ممتاز آغا في ذراعه. لم يتحرك الرجل، ولم تسقط عمامته عن رأسه، بل رفع ذراعه الأخرى مشجّعاً رجاله، وقال لهم: لنرجع، وسيكون لنا حساب مع هؤلاء حينما يرجعون. إني أقسم أمام الله وأمامكم بأن أولئك الدرك لن يروا أسوار ديار بكر تلك فيما بعد».

وهكذا رجع ممتاز آغا مع رجاله، وهم يسمعون خطوات الجموع من بعيد، يعبرون جسر أون غوسلو كوبري فوق نهر دجلة العظيم، وقف الآغا فوق التلة مع رجاله، وهناك رأوا الأرمن يتوارون خلف أسوار ديار بكر.

عبروا الجسر راحلين، أهالي القرية الأرمنية تاركين كل شيء خلفهم، وبلا رجعة.

الطيور العمياء

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٦ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Al-Tuiur Al-a'amia ***by*** "Layla Qasrany"
Copyright © 2016 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: ليلى قصراني / عنوان الكتاب: الطيور العمياء
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-06-9

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

ليلى قصراني

الطيور العمياء

المتوسط

إهداء

إلى الذين ماتوا دون أن تكون لهم فرصة أن يبوحوا بمآسيهم.

إلى روح جدّي خوشابا الذي لم يترك شيئاً في هذه الدنيا غير ابنه يتيماً، في أعالي جبال حكاري.

كلمة شكر

شكرا للدكتورة نورا أريسيان لجهودها في تدقيق الرواية ومراجعتها تاريخيا.

تنبيه

شهدت المدينة التي تُدعى - اليوم - ديار بكر تسميات كثيرة، بلغات مَن سكنوها من الأرمن والآشوريين وأقوام أخرى، لكن الكاتبة استخدمت التسمية الدارجة، وهي ديار بكر، لمنع أيّ تشويش للقارئ، ولتفادي الحواشي.

قرية طورباراز ١٩١٥

الفصل الأول
الحلم

استيقظت كوهار ذات صباح ربيعي، على رائحة الخبز المحمّص القادمة من التنّور؛ حيث كانت والدتها تخبز. نادتها "تعالي خذي أقراص الخبز هذه إلى الكنيسة، حصة الفقراء هي".

كسرت كوهار قطعة صغيرة من الخبز في القفّة، ووضعتها في فمها، وهي تسمع - للمرة الألف - العبارة ذاتها "يا ابنتي، علينا أن نعطي باكورة خبزنا للمحتاجين، فلو لم نفعل ذلك، لمات أحد أفراد عائلتنا. حملت كوهار القفّة، ونزلت إلى الكنيسة.

سنابل الحنطة الخضر المنبسطة في الحقول بدت لها من بعيد، وكأنها سجّادة حرير.

بعض الغيوم المتفرّقة في السماء بشّرت بقدوم المطر.

عند باب الكنيسة، تركت كوهار أقراص الخبز ملفوفة بقطعة قماش.

قرعت على الباب، ثم غادرت؛ إذ كانت تعرف بأن ساعور الكنيسة سيفتح الباب، وسوف يوزّع الخبز على المساكين، كما جرت العادة في تلك القرية المسمّاة طورباراز التي تبعد مسافة نصف يوم سفر عن ديار بكر.

رجعت كوهار راكضة، ونسيم الهواء الرطب يلامس وجنتيها. عند مفترق الطريق، رأت بوغوص الفتى ماشياً.

لَفَتَ جمال كوهار الباهر نَظَرَ الشاب، فأوقفها سائلاً إياها، وهو ينظر إلى

قسمات وجهها الدقيقة "ألستِ ابنة ديكران وآناهيد؟ لقد كبرتِ، وأصبحتِ جميلةً".

رفّ له قلبها، وتمشّت كوهار متغندرة، كان بوغوص في طريقه إلى محلّ عمّه صانع السروج. خجلت كوهار، ولم تجب، بل طأطأت رأسها، وأشارت بالإيجاب، ابتعدت عنه متعجّلة، ثم التفتت فجأة، فيما هو ما يزال واقفاً، يحدّق فيها، لوّح لها، والإعجاب يتقطّر من عينه، قال في نفسه: "البنات الصغيرات، يكبرن بسرعة، ويصبحن عرائس في شهور، مثل فلقة الرمّان، جميلة بنت ديكران هذه".

جلست كوهار في باحة البيت تفكّر في بوغوص، "كم أتمنّى رؤيته مرة أخرى قريباً".

رصدتها أمها جالسة، وأمرتها "قومي أطعمي الدجاجات، ثم ادخلي إلى الحمام، وساعدي جدّتك في غسل أخويكِ".

وبّخت الجدّة الابنَ الأصغر كريكور حينما بكى؛ إذ صبّت كوهار الماء الحارّ على رأسه، "لا تبكِ، أنت تكره الحمّام، وتحبّ الوسخ، وكأنك لستَ ابن امرأة أرمنية!.."

كان هوسيب، الابن الأكبر، يلعب بفقاعات الصابون، وهو جالس على حجر مصقول دافئ. بعد خروج الصغيرين من الحمّام، خلعت كوهار ثيابها، وغسلت الملابس، ثم استحمّت، نظرت إلى ثدييها النابتين، وغسلتهما برفق، خجلت، وهي تفكّر ببوغوص، غطّت صدرها بشعرها الطويل المبلّل، وأكملت غسل جسدها.

خرجت، ووجنتاها متوردّتان، جلست أمام المرأة، وضفرت شعرها.

بعد العشاء، ساعدت والدتها في غسل الصحون، وترتيب المطبخ، ثم استلقت في فراشها، وهي تفكّر ببوغوص، لكنها حينما نامت، حلمت بحقول الحنطة في أطراف القرية، وإذا بها قد تيبّست، وامتلأت بقطع فخّار

مكسورة، امتدت حتى الأفق. كان هناك رجال مكوّمين على جانبي الطريق، لم يبق منهم إلا بقايا ملابسهم العالقة بعظامهم، أما والدها؛ فقد ذوى عوده، واختفى في الطريق الوعرة.

ركضت كوهار باحثة عنه، وهي تتعثّر في خطواتها. حينما سقطت، انقضّت فوقها الطيور الجارحة، وراحت تنهش لحمها. قفزت كوهار من فراشها فزعة، فتحسّست جسدها، وعرفت بأن ذاك لم يكن إلا كابوساً، فعادت إلى نومها.

في الصباح، سردت المنام لجدّتها التي قالت لها، وهي تخفي قلقها: "أنتِ تحلمين كثيراً؛ لأنك تنامين كثيراً". لكن كوهار تساءلت: "هل سيتركنا والدي، ويذهب بعيداً؟" كانت كوهار متوجّسة، ولا تعرف لماذا تتفوّه بكلام كهذا!

قالت الجدّة لحفيدتها ساخرة: "منامكِ باطل؛ لأنكِ لم تحلمي به في ساعات الفجر المبكّرة، والدك لن يتركنا، أنا مَن تركني والدي، ورحل دون أن يصل عمره الثلاثين، كنتُ أحب أبي، وهو يحبني، قبل أن أولد بساعات، خاف على أمّي المتألمة بوضع الولادة الخطر، وصعد إلى السطح، ومن الفتحة المسمّاة يرديك، رمى ببيضة، علامة الله؛ كي تلدني أمي بسلامة.

لقد ولدتني، وهي جالسة في الوعاء المخصّص للعجن الممتلئ برماد الفرن؛ كي تحلّ البركة في البيت، ويعمّ الخير فيه، بعد شهرين، عمّدني القسّيس في الوعاء ذاته.

هكذا هي البنت، يا صغيرتي، تأتي إلى الدنيا، وتجلب معها كلّ الخير، ثم كبرتُ، وجاء جدّك لخطبتي مع والده الذي قال لأبي: "في حديقتكم، يوجد وردة جميلة، ونحن لا نريد شيئاً منكم إلاها. لكننا نعدكم بأننا سنحافظ عليها، لقد جئنا؛ لنأخذ حفنة من رماد تنّوركم؛ لنضعه في تنّورنا، ويصبح بركة لنا". قال له أبي: خذ ابنتي، أمَتكَ هي، وخادمة عندك، من اليوم وصاعداً،

ثم قال لي بعد زواجنا: لو خاصمتِ زوجكِ، فليس لك مكان في بيتنا، هكذا زوّجوني، ولم يكن ثدياي قد نبتا بعد، لكنْ؛ سرعان ما صار عندي ولدي ديكران. كان ذلك من سنوات عديدة، وما أزال أذكر، وكأنه البارحة، حينما ناولني القسّيس جرّة صغيرة من الفخّار، كسرتُها عند عتبة الباب، ودخلتُ بيت أهل زوجي لأول مرة.

"أكنتِ تحلمين حينما كنتِ بعمري؟"

"طبعاً، كنتُ أحلم بأني قد كبرتُ، وتحوّلتُ إلى شجرة تفّاح ذات أغصان فارغة، سأضرب بها حفيدتي الصغيرة ذات يوم، عندما لا تسمع الكلام، ولا تمتثل لما أقول" ... هكذا قالت الجدّة؛ لتطرد كل فكرة شرّيرة من رأس حفيدتها، ثم غنّت لها:

"غداً ستكبرين أيضاً، وتتزوّجين.

وسيولد لكِ صبيّ، أما أنا؛ فتزوّجتُ صغيرة،

من بعيد، جاء رجل لخطبتي مع أمّه وأبيه،

ووافق أبي، لا أعرف لماذا!

ربما رشوه بقارورة نبيذ معتّق، وأمي بثوب مطرّز،

أمّا أخي البكر؛ فضحكوا عليه، بخنجر،

وأخي الصّغير بقطع السكاكر الشهية،

رجل غريب، جاء من مكان بعيد، وأخذني من أهلي،

ثم بكيتُ، وبكيتُ، وقلتُ لأمي: مَنْ هو هذا الغريب الذي سيأخذني بعيداً؟!

ردّت أمي ضاحكة: لا تحزني، يا ابنتي، سيأتون بك في عيد الفصح إلى بيت أبيك، وبين ذراعيك يرقد صغيرك" ...

سرعان ما نسيتْ كوهار الحلم، ورجعتْ تلعب، وتلهو مع بنات الحيّ الأرمنيات والكرديات في قرية طورباراز القريبة من ديار بكر.

كان ديكران والدها في تلك الأيام يخرج إلى عمله بعد أن يسمع صوت مطرقة جاره الحدّاد، فيعرف أنها تمام الثامنة، فيذهب إلى دكّانه في السوق؛ حيث يبيع القمح والبرغل، ولدى رجوعه من العمل، يعرّج على الحداد الذي كان محلّه دافئاً في الشتاء، ويستقطب الرجال الذين أتعبهم البرد وعناء العمل.

الجميع كان يعرف كيف يصفّي الحداد هايك الحديد؛ إذ يصلي عليه، ثم يصفّيه من الشوائب، ومن شرّ إبليس، بطلب بركة الله على كل ما في يده. لا يضع الحديد جافياً حتى يرى لهيب الله، حينئذ يعلم أنها إشارة من العليّ أن ما بيده سينجح، ويتبارك المال الذي منه "هناك نار الله، ونار إبليس". هذا ما كان يقوله الحداد لأصدقائه؛ إذ ينفث دخان لفافته حينما يجلسون، ويشربون القهوة معه في ورشته، ويتكلّمون في أمور القرية، ويبدون قلقهم - أحياناً - على ما يسمعونه، من أخبار قادمة من ديار بكر.

بعد عيد الفصح، اشتكت الجدّة من ألم في خاصرتها، وبقيت طريحة الفراش، كانت كوهار تعتني بجدّتها، وتذهب إلى المدرسة التابعة للكنيسة؛ لتتعلّم القراءة والكتابة، كانت تبحث بين الوجوه عن بوغوص بعد الصلاة في يوم الأحد، وحينما تعثر عليه، تقف من بعيد، وتتبادل الابتسامات معه في باحة الكنيسة.

ذات يوم، قال لها بوغوص: "لنلتقِ أسفل القرية في المرج عند الدير المهجور بعد ساعة".

نزلت كوهار إلى الموعد، وهناك تذوّقت طعم القبلات لأول مرة، وشمّت أنفاس الحبيب. تحسّست يديّ بوغوص القويّتين. مسّد شعرها، ولثم شفتيها بقوة، وبعدها مدّ يديه إلى خصرها، وعصرها في زاوية قرب البناية القديمة، خافت، وانفلتت من بين يديه، وركضت خلف حائط حجري، عن

بعد مسافة، وفي المروج المخضوضرة، ثمة قطيع من الغنم، يرعى، وبعض من الرعاة الأكراد، قالت كوهار: "سيروننا، إن لم أعد الآن".

"لا تخافي، كوهار، فأنا لن أغرّر بك مطلقاً".

"أخلاقك رفيعة، ولكنْ ..."

"متى سأراك"

"لا أدري، لكنْ؛ إن كنتَ تريد أن تراني، عليك أن تأتي إلى الكنيسة كل يوم أحد".

قالت، ثم ركضت مسرعة إلى البيت؛ لتعتني بجدّتها المريضة.

بعد مرور سنة، وفي موسم نضوج المشمش، اشتدّ مرض الجدّة فجأة، وذات يوم، عثرت عليها كوهار ميتة في فراشها. فزعت الصبية؛ لأنها كانت وحدها في البيت، ولم تعرف ماذا تفعل.

ركضت إلى الشارع في انتظار والدتها التي ذهبت إلى السوق بصحبة الصغيرين، وحينما رجعت، لم تقل كوهار شيئاً، لكنها بكت، عرفت آناهيد بأن شراً قد لحق بالعجوز، وناحت على والدة زوجها.

طلبت من ابن الحداد "اذهب إلى الكنيسة، وقل للمطران عمّا حدث، ثم اذهب، وقل لديكران بأن والدتك قد انتقلت إلى الأمجاد، وسيدنا سيحضر بعد قليل".

جاء المطران صلبشيان إلى بيت ديكران بمعية الشمّاس الذي أحرق البخور داخل البيت "لندعو الملائكة الطيّبين؛ ليأتوا، ويأخذوا روح المرأة التقية إلى ملكوت الله. الربّ أعطى، والربّ أخذ، فليكن اسم الربّ مباركاً". قال المطران بصوت مرتفع.

حينما جاء ديكران مسرعاً من عمله، تمالك نفسه، ولم يبكِ. وقف خلف

المطران الذي صلّى، ومسح بالزيت جبين الميتة. حمل ديكران ابنه كريكور الذي كان واقفاً بقربه، حضنه، وكأنه يحتمي به من الموت، ثم اتجه نحو الباب الخارجي، وأغلقه، وبعدها وقفت كل العائلة مع المطران حول جسد الجدّة، وتلوا بعض الصلوات على روحها. رفع الشمّاس صوته منفرداً، بكت كوهار حينما سمعته يدعو:

"لا تنوحوا على رحيلها؛ لأنها ذاهبة؛ حيث الربّ،

أبواب المجد قد فُتحت لها،

هو ذا الربّ ينادي عبدته،

فمها لم ينطق بكلمة شرّيرة،

ولسانها - دوماً - تكلّم بالصدق،

دعوها تذهب إلى بيتها الأبدي بسلام،

هناك ستكون في مكان أفضل؛ حيث الرب بنوره يبدّد الظلام".

خرج الرجلان، وبقي أهل البيت ملتفّين حول جسد الميتة، "كأنها نائمة، وهي مبتسمة".

قالت آناهيد، حينئذ - فقط - بكى ديكران، خافت كوهار من برودة جسد جدّتها حينما لمستها مقلّدة أمها، أما كريكور؛ فلم يكن يعي معنى الموت، ولم يعرف ماذا يدور في البيت حينما حاول أخوه هوسيب أن يوضح له فيما بعد، بأنهم لن يروا الجدّة مرة أخرى.

تجمّع النّاس خارج الدّار، وما إن فتح هوسيب الباب حتى دخل المعزّون، الجارات الكرديات ولولن، وبكت زوجة ديكران حينما سمعت أصواتهنّ.

أمّا كوهار؛ فعرفت بأنها لن ترى جدّتها مرة أخرى، ولن تسمع قصصها، سمعت والدها يقول باكياً، والدموع تنهمر من عينيه، "كيف سأدفن أمي

بعيداً عن المكان الذي أحبتْ؟! هي التي تمنّت أن تُدفن حيث وُلدت بقرب جبال جلال أوغْلي وقممه البيضاء التي تعانق زرقة السماء، كانت تلك الجبال - بالنسبة لها - فردوساً على الأرض".

في اليوم التالي، وبعد أن دُفنت الجدّة، حضر المعزّون إلى بيت ديكران، وسرعان ما امتلأت باحة الدار بالجيران والأقرباء. بحثت والدة كوهار عن ابنتها؛ كي تساعدها في خدمة الناس؛ فلم تجدها، كانت كوهار قد دخلت إلى غرفة النوم؛ حيث كانت جدّتها تنام، شراشف السرير كانت كما هي غير مرتّبة، وكأن الجدّة قد غادرت فراشها للتوّ، استلقت كوهار على السرير ناظرة إلى السقف، شعرت بالخواء، ثم دفنت رأسها في الوسادة، وبكت طويلاً، خافت من فكرة الموت، فشعرت برعشة في جسدها مفكّرة ببوغوص، تمنّته، لو كان معها في سرير جدّتها؛ لتنبعث فيه الحياة والحب.

في اليوم الثالث، وبعد الصلاة على روح الميتة، تجمّع الرجال أولاً على مائدة الرحمة، ثم تجمّعت النساء، للأكل. بعد أن رحل المعزّون من المعارف والجيران. تهامس بعض الرجال فيما بينهم، وتكلّموا في مواضيع مقلقة، قال الشمّاس، وهو جالس في ديوان الرجال: "لقد قتلوا قبل يومين في سوق ديار بكر ثلاثمائة نفس، بحجّة أن الأرمن يرفضون خدمة الجيش".

"هل سيقتلوننا نحن أيضاً؟ "سأل أحد الشباب الرجال الجالسين معه".

"لو أن رجال محمد رشيد الحاكم وصلوا هنا، فإنهم سيتخلّصون منا كلنا". قال ساعور الكنيسة، وفي صوته رجفة خوف.

"علينا أن نفتح عيوننا جيداً، ونعرف بمؤامرات الأتراك والأكراد ضدنا في قريتنا". قال الحداد، وهو يلفّ لفافة دخان.

"مَن لديه السلاح، عليه أن يحافظ عليه". قال أحد الرجال. وقاطعه آخر: "والذي ليس لديه، فماذا يفعل؟ علينا أن نحمي عائلاتنا وبيوتنا وقريتنا"، قال الساعور.

"الذي لا يعرف أن يقاتل، عليه أن يتعلّم القتال". قال ديكران، وكأنه يفكّر بصوت عالٍ.

في تلك الليلة، لم ينم ديكران. ليس لأنه كان متوتّراً وتعباً، بسبب مراسيم الدفن والعزاء، لكنْ؛ بسبب الأخبار القادمة من ديار بكر، فيما يخصّ القتل. شارك ديكران زوجته قلقه، قالت آناهيد: "إن الله لا يسمح للمصائب أن تقع على شعبه أكثر ممّا يقدر أن يحتمل. اخلد إلى النوم، يا عزيزي، ولا تقلق".

كانت كوهار - في تلك الأيام - تركض إلى الحقول، وهناك تلتقي بوغوص الذي حرص على ألا يراهما أحد إذا التقيا عند الدير، كما العادة، كان يسرق القبلات من كوهار، وهي تشعر بأنها تريد أن تتزوّج، وتنجب طفلاً منه، كلما التصق بها.

"ذات يوم، سأتزوّجك" ... كان يقول لها، "أريد أن أحبل من أول يوم نتزوّج فيه،"قالت كوهار، وأنفاسها تصعد وتنزل مع كل قبلة، وهي منحنية على صدره، لم يحتمل بوغوص تأجّج مشاعرهما، أزاح محبوبته برفق، حفاظاً عليها، ثم قام معتذراً: "الآن عليّ أن أذهب إلى العمل".

"لا تذهب، ابق قليلاً".

"عليّ أن أساعد عمّي في إنهاء صناعة سرج لتاجر مهمّ، سيأتي رجاله من تبريز قريباً لاستلامه. المحزن أنه قد يكون آخر سرج نصنعه، هذا ما قاله عمّي. سأجمع المال، وأشتري لك - قريباً - صليباً من ذهب، وأساور، تليق بيديك الجميلتين، ستحسدك البنات الأرمنيات، صلِّ من أجلي، يا كوهار؛ كي أصبح غنياً، ونتزوّج قريباً ... ".

"أحقاً! تريد أن تتزوّجني؟" سألت الصبية غير مصدّقة، وهي تمسك بحنكه البارز.

"كوهار ... أصحيح أن قلبك لن يقبل إلا بي أنا"؟

نظرت في عينيه، ولم تجبه، إلا أن قلبها كان مولعاً بغرامه.

قال لها قبل أن ينفصلا ذلك اليوم: "لنلتقِ هنا، وفي المكان نفسه بعد ثلاثة أيام". أما هي؛ فخافت في أعماقها، وسألت نفسها: "ماذا لو غرّر بي هذا الفتى، ولم يتزوّجني"؟!

وبعد ثلاثة أيام، انتظرت كوهار بوغوص حسب موعدهما، ولم يأتِ. كان قد نزل مع أبناء عمّه إلى حقل أحد الرجال الأغنياء، وهناك تجمّع الرجال؛ ليتدرّبوا على السلاح بعيداً عن أعين الأكراد والمسؤولين في البلدة. حمل بوغوص السلاح بيده، وتعلّم كيف يطلق الرصاص. بعد أسابيع من التدريب، اشتاق إلى كوهار، وإلى صناعة السروج، وقال لأقرانه: "أريد أن أصعد إلى القرية".

التقت كوهار بوغوص عند المغيب حال وصوله، وارتمت بين ذراعيه: "أنا خائفة. أحقاً سيأخذك الأتراك، ويجبرونك على الذهاب إلى الحرب، وكل رجال ديار بكر، كما نسمع؟!"

"لاتخافي". قال الفتى، وهو يمسّد رأس حبيبته. "لا تتركني بوغوص". قالت كوهار باكية.

وعدها صانع السروج بأنه لن يتخلّى عنها، ثم أخذ شفتيها بين شفتيه، وشعرت الصبية بأن كل أنوثتها قد تجمّعت في صدرها حينما وضع بوغوص يده على رقبتها، لكنهما كانا يكتفيان، بالقبلات، كانت كوهار تقول لنفسها: "سأفعل بما كانت جدّتي تنصحني به، وهو أن أبقى عفيفة وطاهرة إلى يوم زفافي، لن يمسّني رجل حتى ذاك اليوم".

الفصل الثاني
التهديد

لم يسمع ديكران صوت مطرقة جاره في موعدها ذات صباح. خاف إن كان مكروه قد أصابه، فذهب إلى بيته، ودقّ الباب، ففتحت له زوجة الحداد، وقالت مرتبكة" "نزل هايك إلى الكنيسة، لقد بعث الساعور بطلبه هذا الصباح، وذهب مسرعاً، كان يريد أن يمرّ عليك؛ كي يأخذك معه، لكنه لم يشأ أن يقلقك باكراً".

"هل تعرفين ماذا حدث"؟

"كلا، لكنه سيرجع قريباً، إن شاء الله"، قالت زوجة الحداد.

"قولي للأسطة أن يمرّ عليّ، رجاءً".

انتظر ديكران جاره بقلق لساعات، ووقف عند الباب بصبر، وحالما سمع طرقاً على الباب، فتح ديكران مسرعاً.

"تعال إليّ، في المحل، أريد أن أشاركك بعضاً من مخاوفي" ... قال الحداد.

لحق به ديكران، وبعد أن أغلق باب المحل، قال الحداد: "لقد لفّق الأتراك أكذوبة ضدّ سيدنا المطران، وادّعوا بأنهم قد عثروا على ذخيرة في الكنيسة، يقولون - أيضاً - بأنه يحرّض الشباب على عدم الالتحاق بالجيش، لقد ألقوا القبض عليه، وهو - الآن - تحت الاستجواب".

"ومتى يُطلق سراحه؟" سأل ديكران، وهو لا يزال واقفاً.

"لانعرف شيئاً بعد، لقد قرّرنا أن نذهب بأنفسنا إلى الضابط سلمان، ونطالبه أن يطلق الأب المطران؛ كي يعرف رجاله بأننا لسنا ضعفاء، ليتك تأتي معنا" ...

قاطعه ديكران: "الضابط سلمان، أليس هو ذلك الضابط الذي زجّ ظلماً ببعض من شبابنا في السجن قبل أشهر؟!"

"نعم، هو نفسه".

"ما هو الدافع لاعتقال سيدنا؟"، سأل ديكران.

"هم يعرفون بأنه مركز قوتنا، ويريدون أن يزعزعونا بضربة موجعة نحوه، يظنون بأنه يحرّض شباب الأرمن على عدم الالتحاق بالجيش في حربهم ضد روسيا. هم يريدون أن يجنّدونا كلنا نحن الرجال من عمر الثامنة عشر حتى الخامسة والأربعين"...

"هذه مصيبة"، قال ديكران.

"سنجتمع بالرجال في الكنيسة بعد ساعتين، ومن هناك، نذهب إلى مقر الشرطة". قال الحداد.

"سأذهب إلى العمل؛ لأدّبر بعض الأمور في الدكّان، وألقاكم هناك"، قال ديكران لجاره، ثم غادر.

اجتمع الرجال في سرداب الكنيسة، وتكلّموا في مستقبل المطران صلبيشيان، وبأن يجدوا طريقة لتهريبه من كل ديار بكر. بعض النساء تجمّعن خارجاً، وهنّ ينتظرن سماع أخبار عن المطران. خرج الساعور، وصرفهنّ قائلاً" "لا نريد أن نقلق أهل القرية جميعاً، حالما نسمع خبراً منه، سننبئكم به" ...

بعد أيام، أُطلق سراح المطران، ووقع الرجال على عنقه مقبّلين إياه، ووعدوه قائلين بأن حياتهم فداء له، جلسوا يستمعون له؛ حيث قال: "لقد اتّهموني بأني أحرّض الشبان ضد الجيش، وعدم الالتحاق به، قالوا لي إنْ لم

يلتحق الرجال المطلوبون للخدمة هنا من رعيتي، فإني أنا مَن سيُعاقَب".

"نحن مَن عليه أن يُعاقَب، لا أنت". قال بوغوص.

"هل تشمّ رائحة حرب ضدنا، يا سيدنا؟"، سأل ديكران.

"بلا شك، يا ابني، لكنْ؛ ماذا سنفعل نحن بين هؤلاء الذئاب الخاطفة"، قال الرجل، ثم شكر الساعور الذي جاء بصينية أكل، ووضعها أمامه، بعد أن صلّى بصمت، وبارك طعامه، قال الشمّاس "يا سيدنا، لا يمكن أن يأتوا إليك في كل مرة، ويتّهموك باطلاً ...

"ماذا لو ذهبتَ - مثلاً - إلى مكان آمن"؟ تساءل هايك الحداد.

وهزّ المطران رأسه قائلاً: كيف أترككم يتامى، وأرحل؟! حاشا، رعيّتي أهمّ من سلامتي، لقد أقسمتُ أمام الله والناس يوم ترسيمي أن أضع المؤمنين أولاً قبل نفسي" ... ثم رفع كأس اللبن إلى فمه، وشرب، ثم مسح شاربيه.

قال ديكران: "لن نضحّي بك، لو ابتعدتَ عن القرية لفترة، سيكون ذلك من صالحك وصالحنا، سافرْ إلى حلب حتى يهدأ الوضع".

"نعم ... ستكون في أمان في الدير، هناك، الرهبان قد طلبوا حضورك". قال هايك.

"لا أقدر أن أسافر، قال لي الأتراك بأني سأكون مراقباً كل الوقت".

"اتركوا الموضوع لي". قال بوغوص، وهو يرفع قبضته في الهواء.

"ماذا سنفعل؟ ستستخدم القوة، هذه ليست تعاليم سيدي وسيدك، اهدؤوا، يا أولادي. الربُّ في وقته سيتدخّل". قال رجل الله.

"لا يمكن أن نراك في خطر، ياسيدنا، ونقف مكتوفي الأيدي". ردّ بوغوص.

ووافق على كلامه جميع الرجال الجالسين حوله، قال ديكران للمطران

صلبشيان: "يمكن أن تسافر في الليل دون أن يعرف الأتراك وجهتك، وهكذا تفلت من أياديهم".

"لن أهرب مثل لصّ، يا ابني، ارجعوا إلى بيوتكم - الآن - يا أحبائي، وفي الغد، سنكون قادرين على التفكير بطريقة مثلى، وحسب ما يريده الربّ منا، وليس كما نريد نحن منه". قال رجل الدين، وقد بدأ التعب في عينيه المحمرّتين.

اقترح الساعور: "لنترك المطران يرتاح الآن، قمْ، واغتسل، لقد هيّأتُ الحمّام لك".

وقف المطران، ووقف الرجال المجتمعون أيضاً، ثم باركهم رافعاً صليبه بيده اليمنى، ورسم في الهواء إشارة الصليب، وقال" "سلام الربّ معكم". "ومعك - أيضاً - سيدنا". أجابوه بصوت واحد. بعض الرجال كانوا قد اتفقوا على أن يجتمعوا في اليوم التالي، لوضع خطة لتهريب المطران، اقترح الحداد أن يكون الاجتماع عنده في ورشته، ووافق الجميع.

في محل الحدادة، دخل ابن هايك البكر حاملا أقداح القهوة، وقدّمها لكل من الرجال الستة المجتمعين. كانوا يتكلّمون في البدء بأمور العائلة والعمل، وما إن فرغوا من شرب القهوة، تكلّموا في أمر المطران، قال هايك: "علينا أن نجد طريقة سليمة ومضمونة لتوصيل المطران إلى حلب".

"كل سائقي العربات الذين نعرفهم هم أكراد، فكيف نثق بأنهم لن يشوا بسرّ سفره؟

لو انتظرنا فترة، لجاء حوذي سرياني من حلب" ...

"أنا أعرف حوذياً طيباً، اسمه أصلان، ويسكن في حدود القرية".

"أصلان؟ أليس هذا الكردي الذي يستأجره الأرمن - أحياناً - في سفراتهم؟ سأل أحدهم.

"نعم، هو ذاته"، قال هايك.

"كيف نثق به، وهو رجل كردي؟" سأل ديكران.

"هذا الرجل خبرتُهُ بنفسي، وسافرتُ معه إلى نصيبين مرة، سأكلّمه، وسأقدم له المبلغ الذي يطلبه". قال هايك الحداد، ثم أضاف، "سوف أذهب إلى بيته، على أن تعدوني بألا تخبروا أحداً بهذا الأمر، بل تكتمون سرّنا؛ لأن حياة سيدنا بين أيدينا".

افترق الرجال في ذلك اليوم. وفي الغد، خرج هايك قبل مطلع النهار، وانتظر عند بيت الحوذي الكردي؛ حيث كانت عربته واقفة، حينما خرج أصلان؛ ليسقي خيوله، رأى هايك، فعرف بأن هناك أمراً طارئاً.

"سلام، ماذا تريد؟"

"سلام، أنا هايك، أتذكرني؟"

"طبعا، انت الأسطة الحداد، أذكر كيف أن ابنك قد توعّك في الطريق وانتظرنا ليلة في خان قرب نصيبين."، سأل الحوذي الرجل الأرمني.

"نريدك أن تعمل لنا معروفاً، لا يمكن أن ننساه لك طيلة حياتنا".

"لندخل، ونتكلّم في باحة البيت"، قال الرجل، وهو يلتفت في كل ناحية، ثم قال: "اطلب، وأنا سأعمل ما بوسعي".

"نريدك أن تأخذ سيدنا المطران إلى حلب".

"إلى دير هناك؟

"أصلان ... لا نريد أحداً أن يعرف بهذا الأمر، سيدنا في خطر" ...

"أعدك بأن سرّك سيكون مدفوناً في صدري". قال الرجل، وهو يضرب على صدره". سأخبرك بالتفاصيل بعد أيام قليلة"، قال هايك.

"حسناً، سأنتظرك، أنت تعرف بأن عربتي لا تتفتّش مطلقاً؛ لأن لديّ أصدقاء في كل القرى، وإذا ما تعرّضت عربتي لقاطعي الطريق، فإني أعطيهم الرشاوي، ويتركونني أمرّ بسلام"، قال الرجل، وهو يشعل لفافة دخان.

ضحك هايك من طيبة الرجل، وقال له: سندفع لك الثمن الذي تطلبه".

اضطرب أصلان، وقال بعد أن أخذ نَفَساً من لفافته، وهزّ رأسه "ليصبح المال حراماً عليّ، إن أخذتُ ثمناً لإنقاذ رجل طيب مثل المطران صلبشيان، ابني كان مريضاً مرة، وأخذتُهُ إليه ... صلّى له، وشُفي، فكيف أنسى فضله عليّ؟"

"نحن نريد ضماناً بأن يصل سيدنا بالسلامة إلى حلب".

"لا يوجد ضمانات في هذه الحياة، لكنْ؛ اتّكلوا على إلهكم ... علينا أولاً أن نهرّبه من هنا، والباقي نتركه في يد القدير، لكنك لم تقل لي، لماذا كل هذا؟ ومَن يريد قتله؟".

لم يقل له الحداد شيئاً، خرج من بيت الحوذي في ذلك الصباح تاركاً أصلان مع تساؤلات كثيرة.

الفصل الثالث
قربان أطفال القرية

كان يوماً جميلاً في قرية طورباراز وما حولها من قرى، حينما استيقظ الضابط سلمان باكراً، وكان مزاجه عكراً، جلس يحتسي قهوته، فيما زوجته جالسة عند قدميه. بعد صمت طويل، قال لها "قد حلمتُ ليلة أمس بحلم، لا أعرف له تفسيراً، وإذا بأحد العساكر يخلع عني رتبتي. نياشيني أخذها، ورماها على الأرض، وداس عليها، أما أنا؛ فغدوتُ جندياً عادياً، وأصبحت فلاحاً، أسقي أرض أبي في الحقل. قالت زوجته: "اشرب قهوتك، ولا تفكّر".

"شعرتُ - يا امرأة - بأن الحلم كان حقيقياً، وبأن رتبتي - بالفعل - قد أُخذت مني، لا أعرف ماذا أفعل! لا تخبري أحداً بحلمي هذا" ...

"العكس هو الذي سيحدث - تماماً - فستحصل على ترقية". قالت زوجته، ثم ربتت على ساقه، ونهضت بعد أن لملمت ثوبها متّجهة نحو خزانة الملابس؛ حيث بدلة زوجها العسكرية معلّقة، أخذتها، وقالت له: "ستكون - في يوم ما - قائداً كبيراً في الجيش العثماني، ولن يخلع أحد عنك هذه البدلة. قم، ارتدِ ثيابك، واذهب إلى عملك". ثم ساعدت زوجها على نزع جبّته، وارتداء بدلته. قبل أن يترك البيت، همست المرأة في أذنه "ستصبح مسؤولاً كبيراً، وتأتيك ترقية، والجميع سيحترمك، العربة جاهزة خارجاً.

كان أصلان الحوذي ينتظر الضابط سلمان.

"أين الحوذي محمّد؟" سأل الضابط.

"لقد أرسلني إليك مركز الشرطة بدلاً عنه. محمّد رحل مع ضابط آخر".

"حسناً، حسناً" ... قال الضابط بعصبية، وركب العربة.

كان الضابط سلمان قاسي السيماء، بشارب رقيق، يغطي شفته العليا المزمومة، سلاحه متدلّ أسفل كرشه على جهته اليمنى؛ لأنه كان أعسر. جلس في العربة، وهو يحاول أن ينسى حلمه، بينما الأفكار راحت تتخبّط في رأسه. لكنْ؛ ما إن وصل إلى مركز الشرطة حتى نزل بهدوء، ومشى داخلاً المقر؛ حيث كان آمر الجيش في المنطقة جالساً مع ضابطه، وعلى وشك أن يجتمع ويناقش مع الشرطة وضع الأرمن جيرانهم. استهلّ الآمر كلامه قائلاً لرئيس الشرطة في المركز: "أريد رجلاً من رجالك أن يقوم بتبنّي أمر الأرمن في قريتنا، والسيطرة عليهم، وحسب التعليمات التي وصلتنا من اسطنبول. أنا ورجالي لا نقدر وحدنا أن نتكفّل بالأمر، ونعمل جرداً بأسماء الرجال الذين سيخدمون في الجيش".

قال رئيس الشرطة: "لا أحد يعرف بأمر القرية أكثر من الضابط سلمان".

فتح الضابط سلمان فمه، وقال: "طبعاً، سأتكفّل بأمر تسجيل الأرمن في خدمة الجيش، بل إني أشكركم؛ لأنكم أعطيتموني هذه المهمة، لكني أريد أن أشارككم شيئاً، ألا وهو ... لقد رأيتُ في حلمي ليلة أمس، وإذا برسول الله يأمرني قائلاً: ادخل، يا عبدي، إلى كنيسة الأرمن، وقدّم لي أربعين ولداً من دون سنّ السابعة، وانحرهم قدّامي على المذبح في كنيستهم؛ كي يؤمن بي أولياؤهم، ويعتنقوا الإسلام".

"ماذا تقصد؟" سأل رئيس الشرطة.

"غريب هذا الكلام، ولم نسمع به من قبل"، قال الآمر.

"عليّ أن أنفّذ ما طلبه مني الرسول"، قال الضابط سلمان، بكل ثقة.

لم يقل الآمر شيئاً، لكنه رمى بجسده خلفاً على مقعده متعجّباً، وقال: "لا أقدر أن أمنع ما قد أمر به الله".

أما رئيس الشرطة؛ فجلس فاغراً فمه، وخاف من الرجال الذين حوله،

وقال: "ستخرج القرية عن سيطرتنا، لو قمتَ بهذا الفعل، لمجرد أنّك رأيتَ حلماً، لا يعني أنه لابد من تحقيقه، بلادنا في حرب، وهذه أولويّتنا الآن...".

قال الضابط سلمان بأن تنفيذ هذا الأمر سيكون حصرياً على رجاله هو: "لن نستعين برجال من فِرَقٍ أخرى، أنا ورجالي سنقوم بالمهمة، بل بيديّ، سأقتل هؤلاء الأولاد، كما أمرني رسول الله، ولن أخالف أمره".

هكذا أنهى الآمر الاجتماع بعد أن ناقشوا أموراً أخرى. شعر الضابط سلمان بالزهو، وهو يغادر مقرّ الشرطة؛ لأن الجميع كانوا سيهابونه. أما الآمر؛ فقد ترك المكان، وهو يفكّر في أمر الضابط سلمان قائلاً في سرّه: "أفعى سامّة بقدمين هو، إن وجهه يقدح بالشرّ حتى حينما لا يكون يخطّط للمكيدة".

في اليوم التالي، أمر الضابط سلمان رجاله أن يبدؤوا بتسجيل أسماء صغار القرية ممّن هم دون السابعة.

في المساء ذاته، كان الخبر قد شاع في القرية بين الأكراد بأن الضابط سلمان قد كلّمه الرسول في منامه، وطلب منه أن يقدّم ذبيحة من أربعين طفلاً مسيحياً من الذكور ممّن لا تزيد أعمارهم عن السابعة. لم تمرّ ساعات قليلة حتى كان الخبر قد شاع بين الأرمن أيضاً.

اضطربت كل أمّ أرمنية، لديها صبيّ تحت سنّ السابعة، الجميع فكّروا بإيجاد طريقة لتهريب الصغار، أو أن يخبّئوهم في مكان آمن، لكن سكان القرية كانوا يعرفون بأن الأمكنة مراقبة من قِبل الشرطة، وبأن هناك مَن يشي بالأخبار، أما النساء اللواتي لم يكن لديهنّ صبيان دون السابعة؛ فقد شكرن السماء؛ لأن الأولاد قد كبروا، لكنهن تنهّدن، وفكّرن في أقرابائهنّ وجيرانهنّ. الأمهات في كل القرية بكين بمرارة. خاف ديكران، وشارك مخاوفه زوجته آناهيد حينما سمع الخبر: "ماذا سنفعل؟ هل سندع الرجل هذا يقتل صغيرنا كريكور؟".

"ليقتلني أنا دون ابني"، قالت آناهيد، وجلست تبكي. لم يعرف الصبي ما كان يتكلّم عنه والداه؛ حيث كان يلعب بقربهما. حضنته أمه، وقالت:

"لا أحد يقدر أن يأخذ ابني مني". هوسيب قال لأخيه، "سيأتي الأكراد؛ ليأخذوك إلى الكنيسة، وهناك يذبحونك مثل دجاجة". ضربه أبوه قائلاً: "لا تقل هذا الكلام لأخيك". أما كريكور؛ فأخذ وجه والدته الشاحب بين يديه، وهو ينظر في عينيها الممتلئتين بالخوف: "أماه، لا تدّعي الغرباء يأخذوني". بكت الأم بحرقة حينما سمعت هذا الكلام.

قالت كوهار لأمها: "لا تبك. لنفكّر كيف يمكن أن ننقذه".

سخر ديكران من ابنته، "كيف ستقفين في وجه الضابط سلمان، وتمنعينه؟".

"سنضع ثياب البنات على كريكور، أليس كل مَن يراه يقول بأنه يشبه البنات"؟

" انتفضت الأم، ودارت في الغرفة مفكّرة "علينا أن نعثر على فستان له من ثيابك القديمة" ... هُرعت الأمّ إلى خزانة الملابس، وتبعتها كوهار، وبحثتا بين طيّات الملابس القديمة عن ثوب من فساتين كوهار حينما كانت صغيرة، فلم تعثرا على شيء.

"ماذا سنفعل الآن؟ ليس لدينا الوقت أن نصنع واحداً" ... قالت الأم، ثم فكرت أن تسأل زوجة الحداد لعلّها تملك فستاناً من فساتين ابنتها التي كبرت، ورحلت بعيداً. لكن زوجة الحداد قالت معتذرة: "لقد أعطيتُ كل ملابس ابنتي للفقراء، يا ويلك، يا جارة، ماذا ستفعلين الآن؟".

"لا أدري" ... ردّت آناهيد حائرة: "اطلبي فستاناً من جارتنا الكردية".

"سأذهب، وأذلّ نفسي، وأتوسّل بها" ...

"ليس لدينا حلّ آخر، يا عزيزتي" ... .

فكّرت آناهيد فيما لو طلبت ثوباً من جارتها الكردية، فإنها قد تشي بالخبر، ولن يفلت كريكور من مؤامرة الضابط سلمان. لم تنم آناهيد في تلك

الليلة، وبقيت تفكر في الأمر، أيقظت زوجها، وشاركته بمخاوفها، وقالت له: "لن أترك ابني يموت، لن أدعهم يأخذونه، سألبسه ثياب الفتيات" ... خاف ديكران، وقال لها: "يا امرأة، لو وشى أحدهم بالخبر، فلربما سيقتلون كل أولادنا أمام أعيننا، ثم يقتلوننا نحن أيضاً".

"إني أؤمن بعدالة الله". قالت الزوجة.

"إذنْ؛ افعلي ما يبدو حسناً في عينيك"، قال الرجل، ثم وضع رأسه، ونام.

في اليوم التالي، طرقت آناهيد باب جارتها الكردية، وفتحت لها، وبعد أن حيّتها، طلبت منها: "هل لي أن أستعير فستاناً من فساتين ابنتك الصغيرة؟ أريد أن أفصّل فستاناً لابنة أخي ...". عرفت جارتها بأن آناهيد كانت تكذب، قالت لها: انتظري قليلاً، سأبحث عن فستان كلنار حينما كانت صغيرة، رجعت بعد قليل بفستان عتيق.

أخذت آناهيد الفستان، ولفّته، ووضعته تحت إبطها، وأخبرت جارتها بأنها ستعيده بعد أيام قليلة. حالما رجعت إلى البيت، ألبست ابنها كريكور الفستان، وبدا كأنه بنت، ضحك هوسيب على أخيه، وقبل أن يقول شيئاً، ضربته أمه، بكى هوسيب، ولم يعرف كريكور لماذا كانت أمه مرتبكة إلى ذاك الحد، خلعت الفستان عنه آمرة ابنتها: "اغسلي هذا الفستان الآن، وعلّقيه؛ كي ينشف".

لم يخرج الآباء إلى أعمالهم كالمعتاد في اليوم المعيّن. طاف العساكر في القرية، وتنقّلوا من بيت إلى آخر باحثين عن صبيان دون السابعة، فدوّنوا أسماءهم.

وقفت كوهار عند عتبة الدار تراقب الشارع، وهي ترى العساكر يدخلون ويخرجون من بيت إلى آخر، وحين اقتربوا من الدار، دخلت مسرعة، وقالت لأمها: "سيكونون هنا بعد قليل".

حينها سمعت كوهار نواحاً قادماً من فناء دار الجيران، وارتفع عويل

النساء. كانت كوهار تتتبّع خطوات العساكر، "لقد خرجوا من بيت الحداد، وسيأتون هنا بعد قليل".

مشّطت آناهيد شعر كريكور الأشقر النازل على كتفه بعد أن ألبسته الفستان، وعلّقت عقداً في رقبته، وقالت له: "استلق في الفراش، وحالما تسمع صوتاً غريباً، تصنع النوم، وإلا سيأخذك العساكر معهم". ثم خرجت، ووقفت بجانب زوجها في باحة الدار. أما كوهار؛ فأمرت هوسيب أن يدخل الفراش أيضاً، وألا ينطق بأي كلمة.

جاء صوت أحد العساكر الثلاثة بعد أن ضربوا الباب بشدة، "لدينا أمر بتفتيش المنطقة والبيوت، ونسجّل أسماء الأولاد دون السابعة". فتح لهم ديكران، ووقفوا في باحة البيت، وقال لهم: "ليس لديّ صبي دون السابعة. .. لدي طفل في العاشرة وصبيّتان".

"أريد أن أرى كل مَن في البيت". قال أحد العساكر.

لم يدخل ديكران إلى غرفة النوم مع الرجال الثلاثة، بل بقي في باحة الدار؛ لأنه خشي أن يفقد رباطة جأشه، فيفضح الأمر كله، فأوكل المهمة تلك لابنته وزوجته.

"هما في فراشهما".... قالت الأم بصوت هادئ، كانت كوهار واقفة في زاوية الغرفة، وهي ترتعش حينما قال أحد الجندرمة "أريد أن أرى مَن في الفراش".

قادته الأم إلى سرير ابنها هوسيب أولاً، كشف الرجل عن وجه الصغير الذي كان فاتحاً عينيه على وسع، وهو ينظر باتجاه الحائط.

"هذا ابني، وهو يبلغ من العمر العاشرة".

"انهض، وقف على قدميك، يا ولد". صرخ العسكري بهوسيب.

وثب الصبي مذعوراً، وسقط على الأرض، ثم اعتدل في وقفته، "كم عمرك؟" سأله العسكري.

تلعثم هوسيب، وقال "عمري عشرة سنوات".

هزّ الرجل رأسه دون أن يقول كلمة، وعقد يديه خلف ظهره ناظراً إلى السرير الآخر؛ إذ كان كريكور مضطجعاً، ويتحرك تحت الأغطية. قالت آناهيد": إنها ابنتي، وهي نائمة، اقترب العسكري من الفراش، ورفع الغطاء كاشفاً عن رأس الصغير كريكور، ورأى في وجهه وجه صبية. جاء صوت كوهار من خلف العسكري، "أختي تعاني من حمّى". عاد العسكري، فغطّى وجه الصبي. التفت، ونظر إلى كوهار، ثم أمرها "هات لي كأس ماء".

ركضت كوهار إلى المطبخ، في حين اجتهدت الأم لتوجيه الرجال خارج غرفة النوم، مشت هي أولاً متّجهة إلى الباحة، قال أحد الرجال الثلاثة: "أنا ورجالي جائعون، أعدّوا لنا شيئاً؛ لنأكله".

استدارت آناهيد، وقالت بلهجة متوسلة "ليس عندنا شي جاهز الآن". قال العسكري لديكران آمراً "قل لزوجتك أن تذبح لنا دجاجة".

"دجاجة؟" تلكّأ ديكران.

"نعم ... دجاجة من دجاجاتكم التي في الزاوية هناك"، قال وهو يومئ إلى الزاوية التي فيها الدجاج قن المغطّى؛ إذ كان يصدر منه صوت الدجاجات. "نشف ريق ديكران من الخوف والغضب، فلم يكونوا هم أنفسهم يأكلون الدجاج؛ لأنهم يربّونه من أجل البيض، وقال لهم: "اجلسوا أنتم هنا في الباحة، وأنا بنفسي سأذبح لكم دجاجة".

جاءت كوهار بفخّارة صغيرة مبلّلة، وقدمتها للرجل الذي طلب منها أن يشرب.

وقفت آناهيد في المطبخ تُبصر زوجها وعيناها تدمعان حزناً على الدجاجة التي تنتفض بين يدي ديكران، وهو ينحرها، أخذتها آناهيد، وسمطت الطير لاعنة العسكري كلما غمست بين يدي ديكران في الماء الفاتر. بقرت بطن الدجاجة، وإذا بداخلها مجموعة من البيض الصغير، أخذتها، ووضعتها

في وعاء، وخبّأتها؛ لتعدّ لصغارها عجّة البيض في المساء. في أثناء ما كانت الدجاجة تُطبَخ، أضافت آناهيد فوقها بعض اللبن الرائب؛ كي تنضج بسرعة. صبّ ديكران الماء في كؤوس فخّارية صغيرة، وقدّمها للجندرمة "سيكون الأكل جاهزاً بعد قليل". أما هم؛ فكانوا جالسين يدخّنون، نظر دركي إلى كوهار حينما جاءت بقفّة الخبز، ووضعتها على الطاولة. ناداها، وهي تظاهرت بأنها لم تسمعه. ثم ركضت إلى أمها، وقالت: "العسكري ناداني، وأنا تجاهلته".

"لا تخافي، اذهبي عند بيت الحداد، وامكثي هناك حتى آتي أنا بنفسي إليك".

كان الوقت يمرّ ثقيلاً على ديكران وزوجته مفكّرين في الصغيرين، فماذا لو فتح الباب، وهُرع كريكور إلى الخارج، وانفضح أمرهم؟.

حينما نضج الأكل، وضعته آناهيد في صينية مع بعض البرغل البائت، وقدّم ديكران الطعام للرجال، وسال لعابه، وهو يشمّ رائحة الطبيخ، وضع الأكل على المائدة أمامهم لاعناً إياهم في سرّه "ليت الدجاجة تصير سمّاً في فمكم". التحق بزوجته في المطبخ؛ حيث كانت جالسة، وهي قلقة على صغارها في غرفة النوم". يبدو أن الأولاد قد ناموا، الحمد لله". قال ديكران، أما آناهيد؛ فوضعت يدها على خدها، وهي حزينة على الدجاجة التي ذُبحت، كانت هي الدجاجة المفضّلة لديها، فهي لا تتحرك حينما تمدّ يدها ببطء؛ لتأخذ البيض من تحتها في صباحات الصيف الهادئة.

أكل الرجال، ودخّنوا بعض اللفافات، ثم تأهّبوا للرحيل، قادهم ديكران إلى الخارج، وما إن تركوا البيت حتى دخلت آناهيد؛ لترى صغيريها، وكانا يلعبان معاً، أسكتتهما آناهيد، وحبستهما في الغرفة، ولم يُسمع لهما صوت حتى غادر العساكر المحلة، واختفوا في الجادة التي خلف بيتهم، أما ديكران؛ فذهب إلى بيت الحداد؛ ليجلب كوهار، حينما دخلت الصبية الدار، احتضنتها أمها، ثم ارتمت آناهيد على أريكة خشبية، ونامت من الخوف والتعب.

في المساء، اجتمع في الكنيسة آباء الأطفال دون السابعة ممّن اختيروا للقتل، وقالوا للمطران: "أمرونا أن نأتي بصغارنا إلى الكنيسة في يوم الاثنين التالي دون أمّهاتهم. تدخّل، يا سيدنا المطران، واعمل شيئاً، سنرى أولادنا يُذبحون أمامنا، ونحن ساكتون".

"اهدؤوا، يا أولادي؛ لأرى ما يمكن أن يريدنا الربُّ أن نفعله، وحسب حكمته هو، وليس حسب خططنا نحن" ...

وقف أحد الرجال، وكان أباً لصبيان ثلاثة من مجموع الأربعين، وقال ضارباً على صدره، "سأخسر أولادي الثلاثة، لا يوجد حزن أكبر من حزني في الأرض، اليوم وإلى الأبد، ولا أحد يقدر أن يبرّئ جرح قلبي".

ردّ عليه المطران: "يا ابني، لا فرق بين الذي يخسر ابناً وبين الذي يفقد ثلاثة. الأولاد مثل أصابع اليد، كل أصبع فيهم مهمّ، هكذا هم الأولاد، لكل منهم مكانة خاصة في القلب، أنت ما تزال شاباً، ولسوف يعوضك الله مثلما عوّض أيوب في الماضي، وسيعطي زوجتك ستة أولاد آخرين بدل من الثلاثة". لم يرض الرجل أن يتعزّى، ولا باقي الآباء؛ إذ قالوا فيما بينهم "لو كان للمطران أولاد، لما قال هذا الكلام". وفي ذلك، بكوا معانقين بعضهم، أما المطران؛ فقد نصحهم قائلاً: "لا تخرجوا من بيوتكم مع الصغار بدون إفطار في ذلك اليوم، دعوهم يأكلوا آخر وجبة مع أمهاتهم، واجلسوا، وكلوا أنتم - أيضاً - معهم بدون بكاء، ولا نواح".

في اليوم الذي سبق المذبحة نظر الناس إلى السماء، فكانت محمرة وبدا لونها غريبا في أعينهم، فجأة رأوا شعلات النيران بيد الدرك وهم يقتربون من المحلة. وقفوا عند باب الكنيسة بعد الصلاة، إذ فتح لهم الساعور وطلبوا منه أن يقابلوا المطران، خرج رجل الدين للقاء الرجال، "هذه رسالة من الضابط سلمان"، قالوا، ثم تركوا المكان. فتح الأب الرسالة وجاء نصها، "المطران صلبشيان، يا عدو الإمبراطورية، إياك أن تحاول تخليص أيّ نفس من الموت، أقول لك الآن بأنه لو نقص طفل من الأربعين فأني سأقتل كل أطفال قريتكم، ليكن كلامي واضحا".

لم ينم المطران في تلك الليلة، سهر وصام عن الأكل والشرب، لعلّ الله يغيّر ما في قلب الضابط سلمان، ويعدل عن فعلته. لكنْ؛ في الوقت المحدّد، وعند ظهيرة يوم الإثنين، وصل الضابط سلمان إلى الكنيسة مع عساكره. ضرب أحد الجنود الباب الخارجي للكنيسة، وولج أولاً الضابط، أما سائق العربة أصلان؛ فاستدار عند منعطف الطريق، وشدّ لجام الفرس. ركن عربته بعيداً عن الكنيسة بمسافة تاركاً خلفه غيمة من الغبار. نزل، ووقف تحت ظل شجرة بجانب رجل كردي، يراقب ما يحدث. حكّ الحوذي ظهره، ونظّف أظافره من الجلد الميت والوسخ، ثم أشعل لفافة دخان، الجميع كانوا يعرفون أصلان الحوذي، لكنهم لم يروه مطلقاً. ينقل ضابط الشرطة. سأله الرجل الواقف بجانبه، وكان كردياً "أنت - إذاً - مَن أوصل الضابط إلى الكنيسة".

"نعم، لماذا تسأل؟".

"لأنك ساعدتَ الضابط على الوصول إلى الكنيسة؛ ليقتل الصبيان الأبرياء".

"كان سيجد طريقة أخرى للوصول حتى إن لم أوصله أنا". قال الحوذي مدافعاً عن نفسه ... ابتعد عن الرجل، وهو يدخّن بقلق شاعراً بالذنب، بعدها ركب عربته، ورحل.

حينما سمع أصوات أجراس الكنيسة الحزينة، ارتفع بكاء الأمهات، ونواحهنّ سُمع في كل القرية، أما الآباء؛ فكانوا في ساحة الكنيسة، كلّ ممسك بيد ابنه. أمرهم العسكر أن يقفوا في صفّين. لم يكن الأربعون صغيراً يعرفون ما الذي سيقع لهم، لكنهم كانوا مذعورين. المطران صلبشيان والشّماس وساعور الكنيسة عزّوا قلوب الآباء بكلمات روحية، وقال الشّماس بصوت أجشّ وعال؛ ليسمع الجنود الأتراك، عساهم يفهمون بعض الأرمنية، فيشعرون بجريمتهم "دم أولادكم لن يذهب هباء، سينتقم لهم الله قريباً".

أما الآباء؛ فكانوا يصلّون أن يسقط الدرك موتى، وتقع جدارن الكنيسة عليهم، وتقتلهم قبل أن يقتلوا الأولاد.

أمر أحد العساكر أن يترك الآباء أيادي الصغار، لكنهم رفضوا، دفع العساكر الآباء، ورفعوا سياطهم مهدّدين، وفكّوا أيادي الرجال عن أياد صغارهم عنوة. صفّ الجنود الصبيان، وربطوا أياديهم الصغيرة بحبال، وساقوهم داخل الكنيسة، أما الأطفال الرضع؛ فحملهم الجنود من أعناقهم.

علا بكاء الصغار، ولم يتمالك الآباء أنفسهم، فبكوا بحرقة، الأب صلبشيان غطّى وجهه، وبكى حابساً دموعه، ثم رفع صوته: "مثل شاة تُساق إلى الذبح، قادوا المسيح إلى الموت، هكذا هؤلاء الصغار اليوم، كل واحد فيهم مثل يسوع صغير سيذُبح من أجل فدائنا.

أُغلق الباب من الداخل؛ حيث كان الضابط سلمان ينتظر. وقف عسكري عند الباب خارجاً لحراسته، ولم يجرؤ أن ينظر إلى الرجال الواقفين في الساحة، والذين كانوا يشتمونه بالأرمنية التي لا يفهمها.

صوت الأطفال رنّ في قاعة الكنيسة مثل ترنيمة حزينة، من الداخل، صرخ الضابط سلمان بكلمات غير مفهومة، ووصل صوته إلى الخارج، ممّا أفزع الجميع.

مرت الدقائق ثقيلة على الآباء، وكلما ارتفع صراخ الصغار في داخل الكنيسة، علا بكاء أوليائهم، قال أحد الآباء: "أرجوكم، قولوا لي بأن هذا حلماً".

سمع صوت الضابط مرة أخرى، وهو يصرخ مثل جرّار في السوق، كتم الآباء أنفاسهم للحظات، ثم انهاروا. بعض الرجال سقطوا على ركبهم، رفع المطران صوته المرتجف قائلاً: "هم يقدرون أن يقتلوا الجسد، أما الروح؛ فلا أحد يقدر أن يمسها".

ارتفعت أصوات الآباء بالبكاء؛ كي لا يسمعوا صوت صغارهم، ووضعوا أياديهم على آذانهم، ركض أحدهم عند باب الكنيسة؛ حيث كان الحارس واقفاً، لا يتحرك، وتبعه آخرون، علّهم يسمعون صوت أولادهم أحياء. دعا البعض؛ كي يقع الضابط سلمان ميتاً، فجأة ارتفع من الداخل صوت صبيّ منفرد، ثم تدريجياً، تحول إلى نحيب خافت، وظن أحد الآباء أنه

ابنه، فوقع عند أقدام العسكري. أما الحارس؛ ففقد رباطة جأشه، ورفس الرجل شاتماً إياه.

خيّم صمت في الكنيسة من الداخل، وسكت الآباء في الخارج أيضاً، وكأن ملاك الهاوية قد مرّ على القرية لثوان، ووضع الجميع في حالة سكون.

سرعان ما تجمّع أهالي القرية عند باب الكنيسة الخارجي. بعد دقائق ثقيلة، خرج الضابط سلمان بثياب مضرجة بالدم، لم ينظر لا يميناً، ولا شمالاً. مشى مسرعاً دون أن يمسّه أحد من الجموع التي كانت تنتظر خارجاً. مشى مبتعداً، لكن شتائم النساء تبعته حتى اختفى في الأفق.

كان المطران أول مَن أسرع إلى الداخل، تبعه الآباء الذين ارتفعت أصواتهم بالنواح. وحينما رأوا الصغار مكوّمين عند المذبح، والدماء قد لطخت الحيطان والستائر المعلقة في الوسط، سقطوا على ركبهم. صاح المطران قائلاً: "إن أنفاسهم الأخيرة في هذا العالم، هي ذاتها أنفاسهم الأولى في السماء ... "، لكنْ؛ لم يسمع له أحد؛ إذ كان كلّ أب فيهم يبحث عن صغيره، كانت رقاب الصغار قد نُحرت، ووجوههم قد تلطّخت بالدماء. علت صرخات الهلع من جديد، وبكى الأب صلبشيان بصوت عال حينما رأى منظر الصغار قائلاً: "آه، يا رب، احمل هؤلاء بين أذرعك الأبدية". هكذا القساوسة الذين سُمح لهم بدخول الكنيسة قادمين من قرى أخرى، شقّوا طريقهم إلى الداخل، ووقفوا خلف الرجال الذين كل واحد منهم حاول أن يتعرّف على جثة ابنه. حمل الآباء أولادهم إلى الباحة واحداً بعد الآخر، وصراخهم المخنوق يعوم في فضاء القرية.

صفّ الآباء الجثث على الأرض، وسقطوا عندها باكين. طلب الأب صلبشيان منهم أن يكفّوا عن العويل؛ لئلا يغضب الله "أحبائي، تهلّلوا بدل أن تنوحوا؛ لأن اليوم أولادكم سيجلسون في حضن الأب السماوي، لقد وعدنا المسيح بأم في العالم سيكون لنا ضيق، وعلينا أن نثق بأننا نحن مَن قد غلبه، وإن بدا علينا الضعف والكسر". لكن كلمات رجل الدين لم تعزّ قلوب الآباء، فارتفعت أصواتهم بالنحيب والبكاء من جديد.

أمر أحد القساوسة أن يُفتح باب الكنيسة، ويُسمح للأمهات الواقفات عند الباب بالدخول. ركضت كل امرأة؛ حيث زوجها يحتضن جثة ابنه، علت الصرخات من جديد، وبكى الواقفون خارجاً جميعاً، مرّ الوقت بطيئاً وثقيلاً، قيل إن إحدى النسوة قد رفعت صوتها لائمة الله: "لماذا أخذت ابني، يا الله؟".

وجاء صوت المطران مؤنّباً لها: "لا توجهّي عتباً لله؛ لأنه أخذه منك، بل بالحري، اشكريه على أنه أعطاك الصغير، ولو لفترة قصيرة "بكى كل مَن الكنيسة حينما سمعوا هذا الكلام، بل كل مَن في القرية، بكى في ذلك اليوم، الأرمن والأكراد، على حدّ سواء.

حُملت جثث الصغار إلى سرداب الكنيسة؛ حيث تُركت حتى الفجر لحين الغسل. ثلاثة نجّارين قضوا الليل كلّه في صناعة صناديق الدفن.

تبرّعت بعض النسوة بغسل ملابس الرجال المتلطّخة بالدم عند عين الماء بعدما رششنها بالملح، ثم أعدن غسلها بصابون الغار والماء البارد مرتين وثلاثاً حتى زالت بقع الدم. دندنت إحداهن بأنغام حزينة، وهي تدعك الثياب "آه، يا صغارنا، كنتم ستكبرون؛ لتصبحوا أمة كبيرة، هكذا ذهبتم للفردوس؛ لتعدّوا لنا مكاناً، التربة التي شربت من دمائكم ستُنبت تيناً وخوخاً للأجيال القادمة، لن ننساكم، أسماؤكم نُقشت على كفي المصلوب المثقوبتين، هو شعر بآلامكم، كما اختبرها على الصليب، نهر آراكس بعيد، ولا نقدر أن نغتسل فيه، لو عرف ما حدث؛ لتحوّل إلى دم أحمر مثل دمكم، آه، ماذا سنقول لصغارنا وصغيراتنا حينما يكبرون؟". وردت عليها امرأة بجانبها "ابنتي الصغيرة أصبحت أرملة، وهي في مهدها". وبكت النساء، وفي نهاية اليوم، غسلن وجوههنّ في النهر، ورجعن بعدما بسطن الملابس على الصخور كيما تنشف.

في الصباح، جاء الشمّاس والقساوسة، وغسلوا الجثث، ثم لفّوها بأكفان بيض. ذهب بعض الرجال فجراً إلى المقبرة، وحفروا القبور، شاركهم بعض الجيران من الأكراد في الحفر. في الصباح، أقيم القدّاس على أرواح الصغار،

وسرعان ما تزاحم الناس في الكنيسة. قرأ المطران من إنجيل متّى، وكرّر: "اليوم قريتنا قد غدت مثل بيت لحم في زمن المسيح، في السنة التي أمر هيرودس الملك الكبير بقتل كل الصغار دون سنّ السنتين، لكن مريم ويوسف كانا قد هرّبا الصغير يسوع المخلّص إلى مصر، حينئذ تمّ ما قيل في أرميا النبي القائل، صوت سُمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير، راحيل تبكي على أولادها، ولا تريد أن تتعزّى؛ لأنهم ليسوا بموجودين، لكننا نحن - هنا - نتعزّى، يا أحبائي، بوجود الربّ معنا؛ لأننا - اليوم - نحن تحت النعمة، ولسنا تحت الناموس".

كانت كوهار واقفة في عزاء الصغار تصغي جيداً لما يقوله رجل الله، وتحفظ كلام الإنجيل في سرّها. اعتزّت بنفسها؛ لأنها أنقذت كريكور أخاها من الموت.

حُملت التوابيت الواحد تلو الآخر بعد القدّاس، بخّر الكهنةُ الشبانَ القادمين من أماكن بعيدة على طول الطريق، وكل مَن في القرية تركوا بيوتهم، ومشوا في الجناز. تَصَدّرَ الموكب آباء الصغار، وخلفهم ناحت الأمهات والنساء، الأكراد خرجوا من بيوتهم؛ لينظروا ماذا يحدث. وهناك في المقبرة، علا نواح الأمهات والآباء، بعض النسوة سقطن عند توابيت أولادهنّ، وأغمي عليهنّ، مرّ الوقت ببطء؛ إذ كان الرجال يردمون قبراً تلو الآخر، تناوب القساوسة على الصلاة، وعند الظهيرة، رجعوا إلى الكنيسة للتجمّع حول مائدة الرحمة، بعض الأمّهات بقين في المقبرة، توسّل بهنّ أحد القساوسة الشبان "بحزنكم هذا، ستحزنون قلب الله ... آمنوا بالقيامة، إن أولادكم اليوم في مكان أفضل من هذا العالم المليء حزناً وكرباً".

في ذلك اليوم، لم ير أحد لا آناهيد ولا زوجها؛ لأنهما كانا قد أخذا ابنيهما إلى زريبة الحيونات الملاصقة لبيتهما من الخلف، وربطا ابنيهما كريكور، وفمه ملثم ليومين خوفاً عليه من وشاية الجيران.

الفصل الرابع
أصلان الحوذي

هكذا مرت الأيام والأرمن يسمعون أخباراً غير مطمئنة عن وضعهم؛ إذ دارت الإشاعات عن ترحيلهم، وتوجّسوا وقوع الشرّ في أيّ لحظة.

وفي يوم، دخل العساكر الأتراك إلى القرية دون أن يقولوا شيئاً، وغادروها بعد قليل، سكان طورباراز خافوا وخبّؤوا ماشيتهم خشية أن يضع الأعداء أيديهم عليها، لم يكن أهالي القرية يتحرّكون إلا في الليل؛ ليجلبوا بعض الحشائش لإطعام الأبقار، اقتصدوا في الوقود، ولم يأكلوا البيض لأيام، شعرت كوهار بالغثيان، كلما سمعت كلمة "تركي"، وسألت أمها: "هل سيقتل الأتراك صغارنا جميعاً؟".

"لا تقولي هذا الكلام، يا ابنتي؛ لئلا يسمع أخوتك، فيدخل الخوف قلوبهم".

بعد أيام، عاد خاتشيك الصياد المعروف بشجاعته من سفرة بعيدة إلى القرية طورباراز، ولم يكن قد سمع بمقتل الصغار، وحلف اليمين بأن ينتقم بقتل الضابط سلمان.

راقب الصياد بيت الضابط كل فجر؛ ليرى في أيّ ساعة - بالضبط - يترك الكردي سلمان منزله، ويركب العربة. استيقظ خاتشيك غداة يوم ضبابي، وقال في نفسه، وهو يقترب من بيت الضابط: "طقس اليوم مناسب جداً لقتل هذا الرجل". لم يكن هناك أحد في الشارع إلا الحوذي أصلان؛ إذ كان قد ركن عربته، وجلس منتظراً الضابط. كان خاتشيك قد شحذ سكّينه،

واختبأ. فجأة خرج الضابط، وركب العربة. هُرع الصياد راكضاً خلف المركبة، التفت الحوذي حينما سمع جلبة. تمكّن خاتشيك من طعن الضابط في كتفه، فيما أطلق صرخة حادّة محاولاً أن يطعنه مرة أخرى، لكن الضابط قفز من العربة، وركض مختفياً خلف بعض الأشجار، اهتاجت الخيول، وضرب الحوذي أصلان الصياد بسوطه، لكنه سرعان ما اضطرب، أما خاتشيك؛ فأمسك بقوة بمقعد العربة، وتمكّن من طعن أصلان في صدره، قفز خاتشيك من العربة مسرعاً، وركض باحثاً عن الضابط بدون جدوى، ولكنه - بعد قليل - خاف من الناس؛ إذ سمع أصواتهم، وقد خرجوا من بيوتهم. ركض الصياد بعيداً باتجاه البساتين.

كانت القرية قد استيقظت على صوت صهيل الخيول. خرج الرجال، وتجمّعوا حول الحوذي أصلان الذي كان قد تدلّى من عربته، وقد وقفت عند منعطف الطريق، لم يقدر أحد أن يوقف نزف الحوذي أصلان؛ لأن جرحه كان عميقاً، فاحتضر. أما الضابط؛ فقد جلس يداوي جرحه. استنجد ببعض الناس، فهُرعوا لمساعدته، وحملوه إلى منزله.

في اليوم التالي، سمع كل مَن في القرية بأن خاتشيك قام بتلك الفعلة، أما هو؛ فكان قد هرب إلى الحقول، واختبأ في ظل بئر قديمة لأيام كثيرة. خرج والده هائماً في البراري باحثاً عن ابنه، وفي جعبته شقفة من الخبز، وقطعة جبن بيضاء، رآه ابنه من بعيد؛ حيث كان خاتشيك مختبئاً في مقبرة قديمة، نادى والده، ثم تواريا خلف شجرة حور، وهناك تكلّما معاً حتى المغيب. أكل خاتشيك بشهية، بينما أبوه يرمقه بنظرة عطف، وقال ناصحاً ابنه بعد أن فرغ من طعامه "اهرب إلى حيث لا يوجد مَن يعرفك، فلو عثر عليك أهل طورباراز؛ لقتلوك".

"ليذهب الأكراد إلى الجحيم، لا يقدرون أن يقتلوني".

"ليس هم مَن يطالب بدمك، بل الأرمن".

"لماذا؟"، سأل الشاب بتعجّب.

"أنت قد قتلت الرجل الذي كان سيهرّب المطران إلى حلب بعربته. كان الحوذي سيجازف بحياته، من أجل سيدنا، والآن المطران في خطر"، قال الرجل، وهو يحبس بكاءه في حنجرته.

"مَن قال هذا الكلام؟".

"هو مهدّد منذ فترة. لا تعد إلى البيت، وإلا وضعتَ نفسك، ووضعتنا في خطر". قال الأب باكياً، ثم ودّع ابنه، ورحل.

تمنّى خاتشيك لنفسه الموت، وهو يفكر في فعلته الشنيعة. رجع، واختبأ لأيام مثل حيوان شرس قرب البئر، في النهار، كان ينام في مكان ناء، وعند المغيب، تحرّك باحثاً بين الأحراش عن شيء يأكله.

الفصل الخامس
المطران يواجه سلمان الضابط

وبعد أسابيع ضربت نواقيس الكنيسة في صباح يوم الأحد، وحضر المصلّون القدّاس. كانت جوقة الكنيسة ترتّل الترانيم الروحية، فيما كسر المطران القربان، وبدأ يناول المصلّين قطع الخبز المغموسة في الخمر الموضوعة في كأس نحاسية. فجأة ظهر بين المصلّين رجل بلحية كثّة، وبملابس رثّة، فاحت منه رائحة عفنة، بينما هو يتمشّى بين صفوف المصلّين. وقف بجرأة مع القوم المصطفّين. التفت بعض الرجال متدافعين، ولم يعرفوه، لكن رجلاً بيتهم قال: "هذا خاتشيك"، اضطرب الجميع، وارتفعت غمغمتهم. خاف الرجال أن يمسكوه خوفاً من المطران. اقترب الصياد من المطران، وهو خفيض الرأس. ناوله الأب صلبشيان القربان بعد أن غمسه في الخمر، وقال له "كُلْ، هذا هو جسد المسيح". فتح الصياد فمه، وتناول القربان، ثم انحنى باكياً آخذاً يد المطران إلى شفتيه مبلّلاً إياها بدموعه. ساد الصمت في الكنيسة فجأة، وتوقّفت الجوقة عن الترانيم. ارتمى الصياد على قدمي المطران، وأمسك بطرف ثوبه، لكن المطران وضع يده على رأس الشاب، وقال له: "مخلّصك قد غفر لك كل خطاياك يوم مات من أجلك على الصليب، قم، واذهب بسلام".

"اغفر لي، سيدنا ... دعهم يقتلوني؛ لأني رجل خاطئ، ولا أستحقّ أن أعيش" ... ابتسم رجل الله، وأمسكه من يده، وأقامه. أشار المطران إلى جوقة الترانيم، فعاودوا الترتيل.

مشى الصياد ببطء بين المصلّين خارجاً دون أن يعترضه رجل، ولم يجرؤ

أحد على أن ينتقم منه داخل الكنيسة خوفاً من المطران. تبعه رجلان، لكنْ؛ حينما وصل خاتشيك إلى منعطف الطريق، كان الصياد قد اختفى عن نظرهما.

سمع الأتراك في مقرّ الشرطة بأن خاتشيك قد حضر قدّاس يوم الأحد، غير أن الخبر وصل إلى الضابط سلمان بهذا الشكل "المطران متواطئ مع الصياد المجرم، وقد دفع له مبلغاً؛ كي يقتلك انتقاماً لدم الأولاد".

بعد أيام، بعث الضابط سلمان رجاله إلى المطران صلبشيان؛ ليأتوا به إلى مركز الشرطة. بعض أعضاء الكنيسة الذين كانوا متواجدين في بيت الله، منعوا الأب صلبشيان من الذهاب "اذهبوا، وبلّغوا الضابط سلمان، وقولوا له بأن يتكلّم معنا نحن؛ لأننا خدم المطران". لكن العساكر دفعوا الرجال، ثم دخلوا، ووضعوا أياديهم على رجل الله، وأخذوه معهم.

وقف المطران أمام الضابط سلمان الذي سأله عن خاتشيك، لكن المطران أصرّ على أقواله، وبأنه لا يدري بأمر الصياد شيئاً، بل ولا يعرف - بالضبط - ما قد حدث.

"أنت أمرتَ الصياد أن يقتلني". قال الضابط.

"أنت واهم جداً، يا حضرة الضابط".

"لا تقل بأن حقيقة مثل هذه هي من خيالاتي"...

دافع رجل الله عن نفسه قائلاً: "لم يطلب أحد من الرجل الصياد أن ينتقم، هو تصرّفَ من تلقاء نفسه، نحن نؤمن بالمغفرة، وليس بالانتقام، لقد غفرتُ لك يوم قتلتَ صغار القرية"...

"أنا عارف أعمالك، أنت خطّطتَ أن تتخلّص مني، ومن ثم؛ تهرب".

"هذا الكلام غير صحيح". قال المطران صلبشيان بهدوء.

في نهاية اليوم، قال الضابط: "سأطلقكَ هذه المرة، لكني سأزوركَ في الكنيسة قريباً".

"أتجرؤ أن تدخلها مرة أخرى، يا حضرة الضابط؟" قال المطران معاتباً الرجل.

ردّ عليه الضابط شاتماً إياه، ووجّه له اتهاماته "اللعنة عليك، كلنا نعرف بأنك تحرّض الشبان، ليس فقط على عدم طاعتنا، بل على التهجّم علينا. ما كان يجب أن أطلق سراحك في المرة الأولى".

"لم أحرّض أحداً ضدكم، أنتم أطلقتُم سراحي؛ لأنكم لم تعثروا على دليل، يبرّر اتهاماتكم الباطلة"...

"لدينا أدلّة على أنك تحرّض الرجال ضد القانون".

"لا أحرّض أحداً ضدكم، بل دائماً أشجّع الجميع على طاعة القانون. إنجيلنا يقول بأن طاعة القانون هو من طاعة الله".

"لكن أعمالك تقول عكس أقوالك. لدينا وثائق ورسائل تثبت بأنك قد هربت بعض الرجال إلى بلاد الروس، والآن تريد الهرب".

"الجبناء - فقط - يهربون، والأرمن ليسوا جبناء". قال المطران مدافعاً عن نفسه.

ضحك الضابط ساخراً، واقترب من المطران، وأمسك لحيته، وقال له "ألا تخاف مني، يا حضرة المطران؟".

"لا أهاب رجلاً، أيها الضابط، بل من الله وحده أخاف". قال رجل الله متحدّياً الضابط.

أنهى الضابط كلامه مع المطران قائلاً: "سآتي قريباً إلى الكنيسة؛ لنكمل حديثنا، لكنْ؛ لا أريد أن أرى رجالك هناك، أنتم تتجمّعون فيها، وتتآمرون ضدنا".

رجع الضابط إلى البيت في ذلك اليوم، وكان منزعجاً من تحدّي المطران له، قالت له زوجته: "لا تحزن، يا عزيزي، إن كان ذاك النصراني يسبّب لك صداعاً، تخلّص منه؛ لترتاح".

"أتقصدين أن أقتله؟".

"تقتله، أو تبعده خارج طورباراز، بل خارج كل ولاية ديار بكر".

"لا أعرف، يا امرأة، لو قتلته، فستصبح ضجّة هنا".

"على العكس، كل الأرمن والأكراد في المنطقة سيحترمونك، ويهابونك، عليك أن تقنع مَن هم أعلى مرتبة منك بأن المطران قد خرق أوامر الإمبراطورية".

"فكّر الضابط في ما قالته زوجته، وبقي مستيقظاً حتى بزغ النهار، في اليوم نفسه، اجتمع بضبّاط الجيش في المنطقة؛ إذ كان قد طرح أمامهم قضية المطران مسبقاً: "إن ما يفعله السيد صلبشيان يخالف تعليماتنا القادمة من اسطنبول، في السابق، حرّض الشبان على التمرّد ومخالفة قانون النفير العام، واليوم يستخدم الكنيسة لاجتماعاتهم السرية".

كان آمر الجيش في الجلسة يعرف قلب الضابط سلمان ونيّته، قال للضابط: "لنضع بعضاً من رجالنا لمراقبة القرية".

"هذا لا يكفي، هم يتمرّدون علينا، وأولهم المطران الذي هو رأس الحيّة".

بعد أن اختلف الرجلان في مسألة الأرمن، قال الآمر للضابط سلمان: "إني أسلّم بين يديك هؤلاء، لكنْ؛ لا تمسّ مطرانهم".

"لا ينفع هذا الكلام، كل المؤامرات تحتّ ضدّنا، بإشرافه".

"ماذا تريدني أن أفعل، أن آمر باعتقاله زوراً"؟.

"أكتب لي بخطّ يدك أن أتصرّف بحرية، فيما يخصّ الأرمن هنا في هذه القرية، كَوني أنا الضابط المسؤول في الشرطة، ومن حقّي أن أسجن مَن أشاء، وأنفي مَن أشاء، بدون استثناء".

وقّعَ الآمر على ما طلبه منه الضابط سلمان، ثم ترك مركز الشرطة غاضباً من الضابط سلمان؛ لأن هذا الرجل الأدنى رتبة منه قد تمكّن منه قائلاً في نفسه: "سأبعث بتلغراف إلى اسطنبول، وأخبر وزارة الحرب بكل ما يحصل هنا".

بعد أيام، اجتمع الضابط سلمان بعرفائة، وخطّطوا أن يلفّقوا تهمة ضد المطران دون أن يسبّبوا بلبلة في القرية.

حضر الدرك عند بوابة الكنيسة، واستدعوا المطران. "لدينا أمر بإلقاء القبض على المطران صلبشيان البالغ من العمر ستة وأربعين عاماً. قالوا لساعور الكنيسة. بعض الرجال تجمّعوا عند بوابة الكنيسة، وحاولوا أن يمنعوا الدرك من إلقاء القبض على المطران، "خذونا نحن بدلاً عنه". أما الأب صلبشيان؛ فمنعهم قائلاً: "دعوني، يا أولادي، أذهب، وأعود إليكم قريباً". أخذ كتابه المقدّس الصغير، وأخفاه في جبّته. لم يجرؤ العساكر أن يقيّدوا الأب، وهكذا انطلقت العربة إلى مقرّ الشرطة؛ حيث كان الضابط سلمان ينتظر المطران.

حينما وقف الضابط أمام رجل الله، حاول أن يستفزّه: "ها أنت مرة أخرى تقف أمامي؛ لأنك لم تسمع الكلام الذي قد أنذرتك به"!.

"أنا لم أفعل شيئاً ضد القانون".

"بلى، لقد وصلنا بأن كنيستك قد أصبحت مخزناً للأسلحة".

"هذا الكلام غير صحيح، لا تملك أيّ دليل ضدي، أيها الضابط"، قال الرجل.

"أنت تتحدّاني مرة أخرى، يا سيدنا"، قال الضابط بسخرية.

"ليس لديّ ما أقوله لك، افعل بي ما تشاء، أنت تتّهمنا بأن كنيستنا قد تحوّلت إلى مخزن أسلحة. في الوقت نفسه، أنتم مَن قد حول كنيستنا الأم

في ديار بكر إلى مخزن للأسلحة، لماذا لا تقطع شكوكك باليقين، وتفتّش الكنيسة"؟.

لطمه الضابط سلمان على خدّه، ثم غادر مركز الشرطة مع بعض من رجاله. رجع عند المساء، وكان الأب صلبشيان جالساً في زاوية على الأرض؛ إذ كان عطشاناً، فالعساكر لم يعطوه ليشرب طيلة النهار. لما دخل الضابط، طلب المطران منه كأس ماء، قال له الضابط" :سأعطيك إن أنكرت مسيحك".

" أنت تعرف بأني لن أنكر المسيح، من أجل كأس ماء".

"حسناً، ماذا لو أنكرته مقابل أن أطلقك، ولن آمر بالقبض عليك فيما بعد"؟ قال الضابط متحدّياً المطران.

"كيف أنكر ذاك الذي فداني بدمه على الصليب، ومات من أجلي"؟.

"أنكر قوميّتك الآن، وسنطلقك"! قال الضابط. لكن المطران التزم الصمت. كرر السؤال أحد العساكر الواقفين بجانب الضابط في باحة مقر الشرطة: "أنكر قوميّتك، وسنطلقك".

قال المطران لهم بصوت مرتفع، وهو يبتسم "لقد وُلدت أرمنياً، وأرمنياً، سأموت". أغضبت هذه الجملة الضابط الذي سحب مسدسه، ووضع فوهته على رأس المطران. "سأفرغ طبنجتي هذه برأسك، إن لم تنكر عيسى وقوميتك".

قال أحد الدرك له: "سيدي، لا تقتله، أرجوك، بل أعطني الشرف بقتل رجل أرمني".

"ماذا لو أعطيتك مهمة أن تنتف لحيته الحمراء هذه؟!"، قال الضابط للعسكري، ثم أمسك ذقن رجل الله: "لا تظن بأني سأتركك، وأطلقك بسهولة". قال هذا، ثم دخل مكتبه وحده. أما رجاله؛ فبقوا مع الأب مهينين له. قبل أن ينصرف الجميع، أمر الضابط أن يضعوا سجينهم في الزنزانة.

وفي الصباح، أخرجوه إلى ساحة المقرّ، وسأله الضابط إن كان مايزال عطشاناً، وإن كان قد غيّر رأيه، فيما يخص نكران المسيح. لم يجبه الأب. اقترح دركي: "ماذا لو ربطناه بعربتين منطلقتين باتجاهين مضادين؛ لينقسم إلى فلقتين؟".

"اقتراحك مقنع، لكنْ؛ بيني وبين المطران كلام طويل". قال الضابط.

"ليس بيننا كلام، يا أيها الضابط سلمان، إن كنت تريد أن تقتلني، فتخلّص مني الآن".

"صه، يا أيها الرعديد، تريد أن تموت؛ كي ترتاح، ألن تطلب مني أن أسقيك كأس ماء، أو أطعمك شقفة خبز مثلاً؟". لم يرد المطران، بل التزم الصمت.

بقي المطران في الساحة حتى المساء، وكان قد نشف ريقه تماماً. أشرف على حراسته بعض الرجال طوال الليل. حينما وصل الضابط في اليوم التالي، رأى بأن المطران كان يغطّ في نوم عميق. أمر جنوده أن يوقظوه. شعر الضابط بحقد على المطران، وغار منه غيرة كبيرة؛ إذ كان المطران نائماً بسلام، وكأنه في فراش وثير. استفاق رجل الله، وأعطوه رشفه ماء، بأمر من الضابط. أشعل رئيس الشرطة ورجاله النار في منتصف الساحة، وضع الضابط لفافة تبغ في فمه، ورفع خشبة مضطرمة، وأشعل بنارها لفافته. ثم بقي رافعاً الخشبة مقرباً إياها من وجه المطران قائلاً: "سأحرق لحيتك بهذه النار، إن لم تنكر المسيح".

أجابه رجل الله: "إني أرى ابن الله جالساً على كرسي المجد، ويقول لي: هات يدك، ولا تخف". أرعب هذا الكلام رجلاً واقفاً من الحرس، أنّبه ضميره، فقال للضابط "اصفح عنه، سيدي، ودعه يرجع إلى الكنيسة". نهره الضابط، "لا تعطني أمراً، فأنا مَن يأمر هنا، أتفهم"؟.

ولج الضابط مكتبه، وظل الجندرمة وحده واقفاً أمام المطران.

فكر الرجل الواقف عند المطران خارجاً بأن الله سينتقم منه ومن أولاده، لو عذبوا المطران أكثر. مدّ يده لمسدسه، ثم أطلق رصاصة. اهتزّت الأرض حينما سقط الأب على الأرض، انهار الدركي، وسقط بقرب جثة الكاهن، وانتحب.

هُرع الضابط سلمان هو وكل مَن كان في الداخل إلى الساحة، وصرخ، "مَن أطلق النار عليه؟".

"أنا سيدي". قال الرجل، وهو بعد راكع على الأرض.

"مَن أعطاك الأمر بقتل المطران بهذه السهولة؟".

"أردتُ أن أراه ميتاً، سيدي". كذب العسكري، وهو يخفي وجهه بيده، وينوح.

"أتبكي مثل امرأة؟" قال الضابط، ثم ضربه على رأسه بأخمص مسدسه، ثم دخل غاضباً إلى مقرّه، وتبعه رجاله، عدا قاتل المطران الذي بقي بقرب الجثة باكياً بصوت مرتفع.

لفّ الرجال جثة المطران ببعض الخرق، ووضعوها في عربة، وأخذوها إلى الكنيسة، وهناك رموها أمام الباب، وكان ذلك في ساعة متأخرة من الليل. استيقظ سكان البيوت القريبة من الكنيسة على أصوات الكلاب، وهي تسعر، فخرجوا؛ ليتبيّنوا سبب نباحها، فإذا بالكلاب قد تجمّعت حول جثة المطران, "هناك شخص ميت عند الكنيسة". قال أحدهم راكضاً: "اللعنة، إنه سيدنا ... قتله الملاعين"، قال وهو يكشف عن الجثة. صرخ آخر: "لقد لحست الكلاب دمه، يا للمهانة".

فتحوا باب الكنيسة، وحملوا جسد الكاهن إلى الداخل، رفع أحد الرجال صوته صارخاً "بدونك، نحن يتامى، يا أبانا". بكى الرجال بصوت عال. نهرهم هايك الحداد: "لا يجوز أن نبكي، يا أيها الرجال، سيدنا لم يمت، سيبقى حياً، في قلوبنا "توقّفوا عن النواح، لكنْ؛ بعد قليل سقطوا على جثّته مقبّلين

إياها، تجمّع الكثير من الناس في الكنيسة مع بزوغ النهار. الرجال صرفوا النساء؛ كي يعددن الأكل في البيوت لجناز المطران.

غسل خدّام الكنيسة جثة المطران، وألبسوه حلّته الحمراء الرسمية الخاصة بالأحبار، وعلّقوا صليبه المذهّب على صدره، وألبسوه تاج الأسقفية الأرجواني، ووضعوه في تابوت مصنوع من خشب شجرة الزيتون، قال الحداد، وهو يرى المطران، وكأنه نائم في التابوت: "دعوني أضع كتابه المفضّل على صدره". بكى الجميع بصوت مرتفع، وصرخ أحدهم: "دعنا نقبّل إنجيله قبل أن يتوارى تحت التراب معه". وهكذا دار الكتاب المقدّس بين أيادي الواقفين مقبّلين إياه. في ذلك اليوم، حدثت مناحة كبيرة في قرية طورباراز، بل وفي كل ديار بكر؛ إذ احتشد أهل القرية عند باب الكنيسة، وحضر - أيضاً - الكثيرون من أماكن قصية، وفتحت الأبواب حينما حضر قساوسة القرى القريبة والبعيدة، ثم أقيمت الصلوات على روح المطران، ورنمت جوقة الكنيسة تراتيل خاصة بالموتى، قرأ كاهن كنيسة ديار بكر آيات من سِفْر المزامير، ثم وعظ بينهم قائلاً: "إن شوكة الموت قد غُرزت مبكّراً بسيدنا، لكنه طالما قال بأن لديه اشتهاء أن ينطلق، ويكون مع المسيح، وها هو اليوم قد رُفع من بيننا، وانتقل إلى المجد".

مشى في موكب الجنازة الكبار بجانب الصغار، ورتّلوا الترانيم المعزّية في طريقهم إلى المقبرة. دفنوا رجل الله في المكان الذي كان قد أعدّ له من سنين، أطال رجال الدين الصلاة حينما أخذ كل رجل حفنة من التراب، ورموها في القبر، النساء المتسربلات بالأسود كنّ واقفات خلف الرجال، يبكين بصمت، وكلما ارتفعت أصواتهن، جاء صوت أحد الشمامسة القادمين من القرى المجاورة آمراً إياهن بأن يخفضن أصواتهن؛ كي لا تفزع الملائكة المرفرفة عند قبر المطران "لا تبكين، لقد حضرت الملائكة؛ لتستلم روحه بأمان، أما جسده؛ فسيرقد هنا على رجاء قيامة الموتى، كما لعازر قد أقيم من الأموات، هكذا سيقوم سيدنا من الأموات منتصراً يوم القيامة في يوم الرب".

أما خاتشيك الشاب الذي قتل الحوذي أصلان؛ فكان يراقب من بعيد ما يحدث في المقبرة، بكى بكاءً مراً، وركض بعيداً هائماً في الغابات الموحشة. بعد أيام، عثر عليه الرعاة معلقاً بحبل نازل من شجرة عالية، وأخبروا أهالي القرية. لم يجرؤ أحد أن يدفن جثته، وسرعان ما انتشرت إشاعة تقول بأن الدببة بالت على جثة الصياد دون أن تمسّه، وآخرون سمعوا بأن الذئاب قد نهشت بلحمه.

الفصل السادس
أخبار الترحيل

أقيمت صلاة الأربعين على روح المطران، وتجمّع أهالي القرية في الكنيسة. تحدّث الرجال، بينما هم متجمّعون حول المائدة، وتناقشوا في شائعات كثيرة، منها ترحيل الأرمن وكلدان منطقة ديار بكر وطور عابدين وتسفيرهم جنوباً نحو الصحراء. كان القسيس الشاب القادم من قرية مجاورة واقفاً في طرف المائدة، وهو يقول للرجال مشجّعاً: "يا أحبائي، نحن اليوم نواجه خطراً حقيقياً، لكنْ؛ لا تضطربوا، هكذا كان سينصحنا سيدنا المطران، علينا اليوم أن نفرح؛ لأن الذي معنا أقوى من الذي علينا، كما يقول الكتاب، وإن حدثت تجربة، فهي ليست من الله، لكنها من إبليس الشرير الذي لا يقدر أن يعمل إلا ما قد سمح به الله. في كل الأحوال، افرحوا، لكنْ؛ لتبق عيونكم مفتوحة، وتأهّبوا ضد الخطر. نحن نقع في الضائقات، لكن المؤمن هو الذي يخرج منها قوياً، اليوم علينا أن نتصرّف، وكأن سيدنا لا يزال قائماً بيننا، فموته ليس نهايته".

سأل أحدهم القسّ: "ترى ما هو مصيرنا نحن هنا؟ هل سيقتلنا الأتراك، كما فعلوا ببعض العائلات في ديار بكر، لمجرد أنهم أرمن"؟.

"لا تخف، يا ابني ...".

" إن لم يقتلونا، فإنهم سيُرحّلوننا جنوباً نحو صحراء بلاد الشام، كما تقول الأخبار بأن الألمان قد أمروا الأتراك أن يُبعدونا عن بيوتنا" ... قال ديكران متكهّناً.

ردّ عليه الحداد هايك: "لا يمكن أن يكون هذا الكلام صحيحاً. الأتراك

لا يقدرون أن يديروا البلد دون أن يستعينوا بنا؛ لأنهم بحاجة إلينا، وإلى ما نقدمه للبلاد من خدمات في مجالات البناء والتجارة والحدادة. مَن سيحفر لهم الصخور بحثاً عن النحاس غيرنا؟ هم يعرفون بأنه بدون النحّاسين الأرمن والآشوريين، فإن اقتصادهم سيدهور خصوصاً في أثناء حربهم مع الروس".

" هناك إشاعة تقول بأنهم قد قتلوا بعض الصيارفة في اسطنبول، وأيضاً بعض رجال الأعمال في ديار بكر، اليوم صباحاً سمعتُ بأنهم قد ألقوا القبض على التاجر آزاد، وهو يهرب بعرباته شباباً إلى حقول البندق التي يملكها". قال ديكران.

"لا أحد يعرف مصيرهم بعد، كان قد وعد الكثير من الشباب بالعمل هناك في زراعة البندق هرباً من الحرب، إنها مصيبة فعلاً، لو أخذنا العثمانيون لنحارب في حربهم ضد الروس"، أضاف بوغوص.

"مَن كان يصدّق بأن جيوش دول كثيرة ستتجمّع حول روسيا الجبّارة؟" تساءل الشّمّاس.

"الله يلعن الألمان، أليسوا هم مسيحيين مثلنا؟ فكيف يقفون ضدنا مع هؤلاء المحمّديين؟. قال ديكران.

"وهل ستتدخّل روسيا لإنقاذنا؟" سأل بوغوص.

"لا تتكلّم بصوت عالٍ؛ لئلا يسمعك بعض الوشاة، لن يأتي أحد؛ لينقذنا، روسيا بعيدة ومشغولة بحربها، نحن مَن علينا أن نخلّص أنفسنا بأنفسنا. ليس هناك نهاية لهذه الحرب". قال هايك الحداد.

انصرف الجميع إلى بيوتهم بقلق؛ إذ كانت أخبار الحرب قد بدأت تشغل بال أهالي القرية.

حينما دخل ديكران البيت، أغلق الباب، وقال لزوجته: "تعالي، يا امرأة، هاتي كل قطع الذهب التي عندك، واحسبي قيمتها، الفضة أيضاً، وكل ما

تملكين من سجاد ثمين أيضاً، جلست آناهيد، ووضعت يدها على خدّها، وتساءلت "ماذا يعني هذا الكلام؟".

"علينا أن نتحسّب للمستقبل".

بكت آناهيد، ثم مسحت دموعها، وقامت، وجمّعت كل مالها من ذهب، ثم وضعته في كيس، وقدّمته لزوجها، "هذا ما لدينا". نظر ديكران، وقال، وهو ينظر إلى الليرات: "حسناً، خبّئيه في مكان آمن".

ثم خرج، وجلس وحده في فناء الدار يدخّن، جاءت زوجته بعد قليل، وجلست بجانبه "قد نرحل عن ديارنا، ولن نعود إليها سريعاً، لا نريد أن نموت من الجوع، ذهبنا سيكون خلاصنا الأخير". قال لها، أما هي؛ فتساءلت متهكّمة: "ماذا سنفعل به؟ سنأكله إن جعنا؟".

"قد نحتاج أن نشتري أرضاً في مكان بعيدة، لو ترحّلنا من هنا مثلاً...".

سمعتهما كوهار يتكلّمان، ثم وقفت أمام والدها قائلة: "خذ خاتم الذهب هذا الذي أعطتني إياه جدّتي حينما كنتُ صغيرة". ناولته كوهار الخاتم، أما هو؛ فنظر إلى ابنته نظرة حزن قائلاً: "ادخلي، ونامي". سهر هو حتى ساعة متأخّرة، ثم جاءت زوجته، وقالت له: "قم واضطجع؛ لأن الوقت قد تأخّر، "كيف لي أن أنام وخطوات أقدام جنودهم تطنّ في أذني؟"، قال ديكران، وهو يسمع صوتاً من بعيد، لم يكن أحداً غيره قادراً على تمييزه. لقد كان الجنود في طريقهم إلى ديار بكر؛ لترحيل الأرمن عن قراهم.

كوهار في اليوم التالي مرّت في السوق، رآها السروجي الشاب، وتبعها إلى أسفل القرية؛ حيث الحقول، وهناك جلسا عند صخرة بعيداً عن أعين الناس: "هل سيقتلنا الأتراك؟" سألت الصبية بقلق.

"لا تخافي، أنا هنا؛ كي أدافع عنك". قال السرّاج، وهو يطلق زفرة.

"لا أريد أن أموت، أريد أن أتزوّجك، وأحمل بطفل صغير يشبهك" ... قال كوهار.

طبع بوغوص قبلة على جبينها، وقال: "ارجعي الآن إلى البيت، ولن نلتقي حتى نعرف مصيرنا".

بكت كوهار، حضنها الشاب، وقال لها، وهي تشعر بصدره ينتفض "كل شيء سيكون على ما يرام".

في طريق رجعتها، مرت كوهار ببعض أهالي القرية، وكانت وجوههم متجهّمة عابسة، وعرفت أن أمراً جائراً سيقع بهم قريباً.

أغلق الأرمن محلاتهم، ولم يتركوا بيوتهم لأيام. دارت الأخبار بين الناس بأن جميع الساكنين في الأراضي العثمانية من الأرمن سيتمّ ترحيلهم، عدا أرمن القسطنطينية وحلب.

الفصل السابع
الحداد

بعد أيام، سمع هايك الحداد صوتاً أمام البيت، أعقبه مباشرة دقّ عنيفٌ على الباب. فتح وهو مرتعب؛ ليجد جنديين واقفين عند عتبة داره.

"لدينا نسخة من رسالة والي ديار بكر مرفقة مع مكتوب من المسؤولين في التشكيلات المخصوصة". ناوله أحد العسكريين المكتوب، وانصرفا دون أن يعطوه فرصة أن يسأل شيئاً. قفل الباب بالمزلاج، وتجمّع أهل بيته حوله، فضّ هايك الظرف، وقالتْ له زوجته: "ترجمْ لنا المكتوب"، حدّقت في الورقة التي في يد زوجها المرتجفة، وبعد أن قرأ قال، وهو يبلع ريقه، "إنه إنذار من الجيش لنا بالبقاء في بيتنا".

"ماذا تقصد؟".

"سنبقى نحن هنا، ولن يشملنا التسفير مع الباقين".

"هل ذكروا في المكتوب بأن هناك ترحيلاً للجميع؟"، قالت الزوجة، وهي تضرب على خدّها.

"يبدو أن هناك مصيبة ستقع على جميع الأرمن عدانا نحن" ... قال الرجل، وهو يجلس.

"ولماذا نحن بالذات؟" سأل ابنه البكر.

"لأني حداد". قال هايك، وهو مرتبك.

بقي هايك منزوياً في مخدعه، وزوجته بجانبه تبكي، فكّر، وقال لها "قولي

للأولاد ألا يخرجوا، ويخبروا أحداً بخبر الترحيل". قامت الزوجة، وطلبت من أبنائها أن يجلسوا في البيت دون حراك. لكنْ؛ في تلك الليلة كان كل بيت أرمني وسرياني في المنطقة قد سمع بخبر الترحيل.

"أشعر بالذنب، يا امرأة"، قال الحداد.

"لنصلّي؛ كي يعدل الوالي عن قراره، فلا يُرحّلوا". قالت المرأة.

"ماذا سنفعل، الجميع سيرحل عدانا"؟ سأل الابن البكر أباه الحداد.

"لا أعرف، أشعر بأني أخونهم".

في اليوم التالي، قال الحداد: "سأخرج لأحمل العناء مع جيراني وإخواني، وأمدّ لهم يد العون". خرج، واتفق مع أولاده على أن يشتري بغلاً؛ ليعطيه هدية لعائلة فقيرة من الجيران؛ كي يخفّف ذلك من حملهم في أثناء التسفير. بعث أولاده إلى القرية المجاورة، وجلبوا الدابة دافعين الثمن. شكر الجيران الحداد وأبناءه، وراح هو وعائلته يساعدون جيراناً آخرين في شدّ حقائبهم، كلّ حسب حاجته. في المساء، في أثناء رجوعهم إلى بيتهم، قابله في الطريق ديكران؛ وقال له: "نريد أن نطلب منك شيئاً، لقد سمعنا بأنك لن ترحل معنا".

"صحيح. مُرني ماذا تريد أن أفعل لك؟"، قال الحداد.

"نريد أن تكون حارساً على بيتنا وأشيائنا حتى نرجع"، قال ديكران.

"أنا وأولادي سنتناوب، ونسهر حارسين بيوت القرية".

"لكنْ، إن لم نرجع في الشتاء، فلا تتعب نفسك، مؤننا سوف تفسد، وحيطاننا سوف تتشقّق"... قال له جاره: "لا تقل هذا الكلام، سترجعون". عانق الرجلان بعضهما، ثم تفرّقا.

الفصل الثامن
الترحيل

دخلت آناهيد الحمّام مع أولادها، واغتسلوا؛ لأنها لم تكن تعرف متى سيستحمّون مرة أخرى "لنتنظّف قبل الرحيل". أما كوهار؛ فضفرت شعرها المبلّل، ووضعت في صرّتها زوج أحذية، لم تكن قد ارتدته من قبل، كانت قد اشترته ليوم زواجها من بوغوص.

قالت آناهيد لزوجها: "ادخل، واغتسل".

"لا أقدر، كل جسدي يؤلمني؛ لأن ضرسي يؤلمني".

حاولت زوجته أن تسكن الألم بكبش قرنفل، فأخذت حبّات قليلة من القرنفل الموضوع في وعاء نحاسي، ثم أغلقته، وأرجعته إلى مكانه على الرفّ. "خذ هذه الحبة، ضعها تحت لسانك، وسيزول الألم"، أخذها ديكران، ومضغها حتى أصبحت ليّنة في فمه، ثم وضعها بقرب ضرسه الموجوع. لكنه ما إن استلقى في فراشه حتى تضاعف الألم.

قبل المغيب، خرجت كوهار إلى الحارة، وهناك في إحدى الزوايا، التقت بوغوص، قال لها: "ستكونين قريبة مني كل الوقت، ونحن مُرحّلون".

"أتخاف علي، لذلك تريد أن تحميني؟".

"طبعاً، أيتها الجميلة، واجبي في الحياة هو حمايتك".

"عليّ أن أذهب الآن، والدتي تحتاجني، علينا أن نقوم بالكثير من العمل، قبل السفر".

ذات يوم سنرجع، ونعيش في أمان"، قال الشاب.

غداة اليوم التالي، قرع جنود الأتراك أبواب بيوت الأرمن بشدة، وأمروهم أن يتجمّعوا في ساحة القرية. لم يُسرع الناس لترك بيوتهم، بل تماطلوا، وجاء العساكر مرة أخرى، وأرغموهم على أن يتركوا بيوتهم؛ إذ كسروا الأبواب، وجرّوا الناس خارجاً. خاف أهالي القرية، ووضعوا أشياءهم أمام عتبات البيوت. من فوق خيولهم، ضرب الدرك سياطهم في الهواء مهدّدين الأرمن بعدم المماطلة. في منتصف النهار، كان الجميع قد تجمّعوا أسفل القرية، منتظرين أمراً من الضابط.

ديكران وعائلته التحقوا بالقافلة قبل أن تتحرّك بدقائق؛ إذ كانت آناهيد مشغولة مع ابنتها في تعبئة أكياس الجوخ بالبرغل، وجهّزت بعض الملح مع الفواكه المجفّفة، "بدون الماء والملح لا نقدر أن نتحرّك"، قالت الأمّ. أما كيس الليرات الذهبية؛ فثبّتته بإحكام بين ثنايا ملابسها. أعطت الصغيرين بعض الملابس؛ ليحملاها. قبل أن يتركوا البيت، قامت آناهيد بتغطية المؤن الموضوعة في القوارير والجرّات الفخارية وأكياس الجوخ لضمانتها إلى حين رجوعهم ... أما ديكران؛ فقد وضع دجاجتين في قفص صغير، وأخذه معه.

في ذلك اليوم، استيقظ الحداد هايك، وأيقظ زوجته حين كان جيرانهم يُرحّلون، بينما خيول العساكر تصهل في حارتهم. أعقبها أصوات أقدام الرجال والنساء والصغار يسرعون خارج بيوتهم مرغمين "لو خيّرت أن أُعذّب مع هؤلاء وبين الحياة، لاخترتُ العذاب على الحياة، قال الحداد لزوجته، شاعراً بأن روحه انسلخت عن جسده، ورحلت مع جيرانه، وبأنه قد بقي في القرية؛ ليشهد وحشة الأشياء من دون أهلها، وصرير الأبواب، وأنين الشبابيك.

مشى الناس مسرعين، وكأنهم يحاولون الوصول إلى مكان آمن، بعدما تنتهي الحرب، ومن ثم؛ يرجعون.

استطاع بوغوص أن يشقّ طريقه بين المئات من الناس، ويمشي بقرب

كوهار. عرفها من لون فستانها الأحمر القاني الذي كانت ترتديه حينما التقيا مرة في أسفل القرية. هكذا مشيا دون أن يتكلّما معاً، وقعت على مسامعهما أصوات حوافر الخيول وقرقعة عجلات العربات التي يجرّها الدرك خلفهم، وهم يعبرون قرية كلدانية مهجورة، مشوا دون أن يعرفوا إلى أين هم ذاهبون، وكلما سألوا الدرك عن وجهتهم، لم يتلقّوا غير الأكاذيب.

رئيس عشيرة للأكراد في القرية المجاورة لطوباراز ممتاز آغا خرج مع بعض من رجاله الأقوياء ممتطين خيولهم، وتعرّضوا للعساكر. صاحَ الآغا بأعلى صوته مخيفاً العساكر، "لن يعبر بريء من هؤلاء الأرمن ذاك الجسر". ثم أشار إلى الجسر الجبار الذي خلفه بأقواسه العشرة.

"اذهب من هنا، وإلا أطلقنا الرصاص عليك، وعلى رجالك"، قال الضابط التركي المسؤول عن الترحيل. كان كل مَن التقى ممتاز آغا يعلم بأنه رجل قدير، لا يحب الظلم والجور، فهو معروف بأنه يحفظ خنجره على جنبه حتى حينما ينام. على خصره، يتدلّى خنجره تحت بدلة الجوخ ذات الألوان الفاقعة التي يفتخر بأن والدته حاكتها له. "على جثتي سيعبرون، أيها الضابط القذر". صرخ زعيم العشيرة شاهراً سلاحه بذراعه القوية. خاف منه كلّ الذين سمعوه من الجنود الأتراك والأكراد معاً.

"قاطع طريق أنت ورجالك، قلت لك دعنا نمرّ"، قال أحد الضباط، ثم أمر بالتحرّك، لكن تصدّي آغا ممتاز ورجاله للعساكر، وهم راكبون خيولهم مانعين الموكب من التقدّم".

أحلف لك بشاربي هذا بأني سأقتلك حينما ترجع أنت والأكراد الذين معك". قال ممتاز آغا، وهو يبرم طرف شاربه الكثّ، ثم وجّه كلامه للعساكر الأكراد: "سيقتلونكم، أيها الخونة، هم يحتاجونكم؛ لأنهم يجهلون الطرق، واستعانوا بكم، حالما يرجعون، سيتخلّصون منكم".

بعد قليل، أطلق أحد الضباط رصاصة في الهواء مهدداً بها الزعيم الكردي

ورجاله. ضحك ممتاز آغا ضحكة قوية قائلاً: "لا أخاف، لا من الموت، ولا منكم، سأموت، وأذهب إلى الجنة، وأنتم سوف تموتون، وتذهبون إلى الجحيم".

أطلق الضابط رصاصة، وأصابت ممتاز آغا في ذراعه. لم يتحرك الرجل، ولم تسقط عمامته عن رأسه، بل رفع ذراعه الأخرى مشجّعاً رجاله، وقال لهم: لنرجع، وسيكون لنا حساب مع هؤلاء حينما يرجعون. إني أقسم أمام الله وأمامكم بأن أولئك الدرك لن يروا أسوار ديار بكر تلك فيما بعد".

وهكذا رجع ممتاز آغا مع رجاله، وهم يسمعون خطوات الجموع من بعيد، يعبرون جسر أون غوسلو كوبري فوق نهر دجلة العظيم، وقف الآغا فوق التلة مع رجاله، وهناك رأوا الأرمن يتوارون خلف أسوار ديار بكر.

عبروا الجسر راحلين، أهالي القرية الأرمنية تاركين كل شيء خلفهم، وبلا رجعة.

تركوا هدير نهر دجلة وراءهم، ورحلوا.

تركوا الحطب خارجاً والسجّاد الثمين وقدور النحاس.

تركوا مربّى المشمش في صحن الدار، ورحلوا.

تركوا أكياس البرغل في مخزن المؤن، صحون النحاس التي تلمع والمخصّصة لمأكولات الأعياد والمناسبات.

تركوا الزيتون الأسود والزيتون الأخضر المكبوس من الصيف الذي سبق صيفهم الحزين هذا.

تركوا كل شيء، ولن يرجعوا.

تركوا القهوة المطحونة والبنّ غير المطحون. الملح المجفّف المكوّم لصقيع الشتاءات.

تركوا أصوات أغانيهم في زوايا البيوت.

مكائن الغزل وملاءق النحاس والخشب تركوها، ورحلوا.

تركوا الأحواض الحجرية لعصر زيتونهم وخمرهم.

تركوا أشجار التوت المحمّلة، كُتُبهم المقدّسة تركوها، الأثاث المنقوش تركوه، ورحلوا.

تركوا صلبانهم المعلّقة على الأبواب.

تركوا الثوم المجفّف والنعناع نصف ناشف فوق أقمشة القطن في الظل.

كنائسهم وصلواتهم وقبور موتاهم من أحبّة وأصدقاء، تركوها كلّها، ورحلوا.

سمع هايك وأولاده لغطاً في الليل، نظر من الكوّة الصغيرة، وإذا برجال غرباء حاملين مشاعل وفوانيس يمشون في الشوارع، "إنهم يحملون أثاث الجيران والسجاد، وقدور النحاس والفخّار المملوءة بالزيت. هؤلاء رجال أكراد جاؤوا من قرى مجاورة؛ لينهبوا البيوت" ... قال الحداد لأولاده مذعوراً.

"ستحلّ اللعنة علينا، ماذا سنفعل؟" قالت الزوجة.

بكى الحداد؛ لأنه لم يكن قادراً أن يفي بوعده لجيرانه، وأن يحمي مالهم. "يا ويلتي، سوف يرجع الجيران، ولن يروا ممتلكاتهم، إن طالبوني بها، فماذا سأقول لهم؟".

ردّت عليه زوجته قائلة بعد أن هدأت "لا تخف، هم يعرفون جيداً بين أيّ ناس عاشوا كل تلك السنين، سلابة هم الأكراد".

بعد قليل، سمعوا أصوات صحون النحاس، وهي تطنّ خارجاً. لطم الحداد وجهه، وقال: "ويحي، سأهلك في بيتي، وهم سيهلكون في العراء. لقد ائتمنوني على مالهم، ورحلوا، كيف سيغمض لي جفن؟! ليأخذا الله روحي هذه الليلة، وأرتاح".

"لا تحمل هَمّ غيرك، فكّر في نفسك فقط، وفي بيتك، سنموت نحن - أيضاً - من الجوع، غداً سوف يعرف كل أكراد القرى المجاورة بأننا العائلة الوحيدة الأرمنية التي لم ترحل، قم أنت والأولاد في الصباح، وادخل بيت ديكران، واجلب لنا بعض البرغل والطحين".

"لا أقدر، يا امرأة، أن آكل لقمة حرام".

"إن لم نأكله نحن، فسيأكله الأكراد".

"ماذا أقدر أن أفعل أنا الضعيف؟".

"نحن أولى بالمؤن تلك، يا رجل".

"لا أقدر أن أبلع لقمة لطفل جائع، ربما هم - الآن - جياع وعطشى، لا ماء لهم، ولا طعام في البرية".

في الصباح، طلب الحداد من أولاده أن يحرسوا المنطقة، قال لابنه البكر: "تناوب أنت وأخوك على حراسة بيوت الجيران، إن رأيتُم شخصاً غريباً يدخل أحد البيوت، عليكم أن تخبروني في الحال؛ كي آتي، وأطرده".

توزّع أبناؤه في المنطقة، لكنْ؛ سرعان ما رجعوا؛ لأن غرباء قد جاؤوا، وهدّدوهم قائلين لهم: "مَن أنتم؛ كي تقفوا حراساً على بيوت مهجورة؟! ما تبقّى في بيوت هؤلاء من أكل وزيت هو لنا. أما الأثاث؛ فسنعيده حال رجوعهم، إذا رجعوا".

تقهقر أولاد الحداد خوفاً على أرواحهم. دخل الغرباء البيوت، ووضعوا أيديهم على كل شيء. جلس الحداد وأولاده يسمعون أصوات وقع أقدام الغرباء، وهم يخرجون من البيوت محمّلين بالأثاث والمؤن.

في الليل، سمع الحداد صوت المعاول. فتح الشباك، وسمع رجل يقول: "ربما قد دفنوا الذهب هنا؟ اللعنة عليهم، إن كانوا قد تركوا لنا قدور النحاس فقط، وأخذوا معهم ليرات الذهب".

حدّق الحداد من ثقب الباب، ورأى امرأةً ورجلاً يخرجان من بيت ديكران محمّلين بمقاعد خشبية، كانت تلك المقاعد مصنوعة من خشب الجوز، ومحفورة بزخارف دقيقة، لم يكن هناك عيب واحد في قطع الأثاث تلك التي كانت آناهيد قد اعتنت بها على مدى السنين، وحرصت على ألا يلامسها الماء.

تكوّمت النفايات بعد أيام قليلة خارج بيت ديكران، بينها دمية صغيرة، حملها الحداد وقال: "لا بد أنها كانت دمية كوهار، وهي صغيرة". كانت هي الدمية ذاتها التي وضعتها آناهيد بجانب كريكور حينما ألبسته ملابس الفتيات؛ لتنقذ حياته يوم دخل العساكر بينهم، كانت آناهيد قد صنعتها حينما كانت كوهار صغيرة؛ لأنها بكت مرة قائلة: "ليس لدي لعبة مثل قريناتي". حارت آناهيد مما تصنع اللعبة، فكّرت قليلاً، ثم أخذت ملعقة طبخ خشبية قديمة، ولفّتها ببعض الخرق التي حشتها بالقطن، ثم خاطتها، وألبستها الدانتيلا، طرّزت عينين خضراوين تحت الحاجبين الشقراوين، ثم غمست أصبعها بماء البنجر، ورسمت شفاهاً وردية، أما الشعر؛ فقصّت خصلة من شعرها، وثبّتته برأس الدمية.

عذّبت تلك الدمية الحداد، وعلقت بخياله "ترى هل ستسلم كوهار من هؤلاء؟ بل وكل النساء الأرمنيات؟"، تساءل الحداد، ولم يستطع النوم في تلك الليلة، فكل شيء من حوله كان يعذّبه، رائحة النفايات عذّبته، صوت الديك في الصباح عذّبه، حتى ارتياحه عذّبه. واكتشف - في النهاية - بأنه هو الذي تمّ ترحيله عن هدوء باله وسلامه. هكذا مرّت الأيام ثقيلة على الحداد، ففي كل صباح حينما كان يضع قدميه على الأرض، وينتعل نعليه، كان يلعن نفسه، ثم يغسل وجهه طالباً المغفرة من الله، ويركع بخشوع، ويصلّي.

بعد أسابيع، جاء أحد العساكر، وطلب من هايك أن يساعد الحدادين الأكراد في المنطقة "نريدك أن تعلّمهم مهاراتك. كل أسبوع عليك أن تصنع ألف رصاصة، وسنعطيك القالب والمواد التي ستصل إلينا من إسطنبول،

ستأتي أنت بنفسك؛ لتأخذ المواد منا، وتستلم أجرتك حينما تسلّمنا الذخيرة، تمام"؟.

"تمام"، قال الحداد على مضض.

"ستعمل في محل الحدادة الكبيرة الذي في سوق ديار بكر، لن تعمل في البيت هنا، سنغلق محلك، ساعات عملك ستكون من الفجر وحتى المغيب، أتفهم؟".

"بلى" ... قال الحداد، وهو مرتعب.

بعد أيام، جلس هايك الحداد على المطرقة، بجانب حدادين آخرين، وصنع بصمت ما كان قد طُلب منه. ضرب الحديد، وكأنه يضرب الأعداء، في كل مرة، صنع قطعة بأمر الأتراك، وكان يلعن الأعداء، ويطلب من الله أن يضربهم، كما يضرب هو الحديد، ويشويه على النار. لم يكن ينتظر - فيما بعد - أن يرى نار الله في الحديد، بل يلعن كل ما تصنعه يداه.

في ذلك الشهر، ابيضّ شعر رأسه، وبدا وكأنه قد شاخ عشرين عاماً. كان يدخّن، ويدخّن، ويلعن نفسه التعسة وأقدار الأرمن. حينما كان يمرّ في اليوم المبارك بجانب الكنيسة المقفلة بسلاسل، يرفع صلاة في داخله، وينكسر قلبه للذكريات. في ليلة الأحد، كان يرجع تعباً، ويشعل ثلاث شموع حول مذبح صغير في بيته، وهو عبارة عن طاولة صغيرة، غطّتها زوجته بشرشف أبيض كتّان مطرّز بخيوط حمر. ثمة صليب حديدي صنعه بنفسه موضوع على المذبح. كان هايك يوصد الباب على أهل بيته، ويركعون كلهم مصلّين ذاكرين بصلواتهم جيرانهم في القرية.

في العراء، تعب ديكران من المشي والتفكير، ونسي ألم سنّه رغم أنه كان ألماً شديداً. كان حزنه أشد من ألمه، وهو يجوب مع المرحّلين نحو المجهول. سألت كوهار والدها، وهي تحمل القفص؛ حيث الدجاجتان تنتفضان: "هل سنرجع في عيد الصليب، يا أبي؟".

"لا أدري، يا ابنتي، فأيلول بعيد". قال ديكران بحزن، ثم تركته كوهار، بحثت بين الجموع عن بوغوص حتى عثرت عليه، ومشت بقربه، ساعدها في حمل القفص، كلما تعبت، "لا تتعب نفسك، يكفيك ما تحمله من أمتعة".

الجموع خارت قواهم من الحرّ والتعب في الأيام الأولى، فوقفوا بأمر من الدرك عند المغيب للراحة في إحدى الليالي. البعض لم يعرفوا إن كانوا قد ناموا، أم أنه قد غشي عليهم من شدّة الإعياء حينما وضعوا رؤوسهم على كل ما وقعت أيديهم عليه من ملبس، أو صرّة للثياب. بعض الرجال لم يقدر أن يذهب بعيداً لقضاء حاجته خوفاً من الحرس الذين كانوا يحومون حول القافلة، ويراقبونها.

قدّم ديكران لفافة دخان لرجل جالس بقربه، وكان يعرفه معرفة عابرة، سأله ديكران بصوت خفيض: "هل صحيح بأنهم سوف يقتلوننا ما إن نصل إلى مكان ناء؟".

شكره الرجل على السيجارة، ثم قال: "لقد سمعتُ بأنهم سوف يستخدموننا نحن الرجال والشبّان في إنشاء السكك الحديدية بعيداً عن هنا".

"البعض يقول بأنهم سيتخلّصون منا سريعاً، وسوف يبيعون نساءنا إلى البدو الرّحّل"، قال ديكران.

"لا أظنّ، على الأغلب، سيتركوننا بعد أن يستخدمونا في مشروع السكك الحديدية، ثم نرجع". التفت رجل قربهما، كان يسمع حوارهما، وقال: "هؤلاء لن يعيدونا إلى قرانا. سيشتّتوننا بعد أن يستنفذوا قوانا، ويغتصبوا نساءنا". حزن ديكران، وهو يسمع هذا الكلام، وبقي مسمّراً عينيه في السماء، ونجومها البعيدة حتى تعب ونام.

عاودوا المشي في اليوم التالي، وكانوا متعبين من حراة الشمس، ملابسهم كانت قد بليت تماماً، البعض رموا بثيابهم، ولبسوا أخرى، كانت

هي كل ما لهم من ملبس. الصغار بكوا من شدّة الجوع، والأمّهات وعدنهم بالطعام، حالما يستقرون في الليل، ويشعلون النار للطبخ، لكن الليل جاء، وكانوا تعبين، ولم يقدر الآباء على إعداد الطعام. البعض أعطوا صغارهم القليل من الفواكه المجفّفة والخبز الناشف. هكذا انقضى الليل دون أن يأكلوا الكثير، بل اقتصد المرحّلون في مأكلهم ومشربهم؛ كي يكفيهم لبقية الرحلة. في اليوم التالي، مضوا في المسير مع مطلع الشمس. الرجال أعانوا النساء في حمل ما كان معهم من أمتعة، أما الحوامل؛ فقد وضعوهنّ على ظهر البغال، وتحرّكوا ببطء في الحرّ. كلما أبطأت خطواتهم، انهالت سياط الجنود عليهم.

ذات يوم، وفي أثناء استراحة القافلة في الليل، سُمعت صرخات، وكانت لامرأة ماخض؛ إذ كانت على وشك أن تضع مولودها الأول. هُرعت النسوة نحوها. تبّعتهم كوهار لغرض المساعدة. أما الحرس الذين كانوا يسهرون على الموكب؛ فوقفوا، وسخروا من المرأة الموجوعة بآلام الطلق.

طلبت إحداهن من كوهار أن تُنير لهم بأن أعطتها شعلة متّقدة قائلة لها: "احمليها عمودياً؛ كي لا تحترق بسرعة". وقفت كوهار، وهي تنير للنساء، ولمحت وجه المرأة، وهي تلد وتصرخ من الألم، ثم نظرت إلى زوج المرأة بقربها، وهو راكع يصلّي.

جاء صوت أحد العساكر قائلاً: "قولوا لها أن لا تصرخ، وإلا قتلتُها هي ومولودها". سأل أحد الضباط عما يحدث، وقيل له بأن امرأة تلد بكرها. مع بزوغ الفجر، سُمع صوت المولود باكياً. قال ديكران لزوجته: "هكذا هم الصغار، دائماً يولدون في ساعات غير مناسبة". اقترب الضابط، وسأل إحدى النساء التي كانت تساعد في الولادة، "أصبيّ ولدت المرأة؟ أم بنتاً"؟.

كذبت هي، وقالت: "لقد أنجبت بنتاً". طلب منها الضابط "أريني إياها". اختفت المرأة، وحاولت أن تتظاهر بالانشغال، لعلّ الضابط ينسى الأمر، ويتركهم، لكنه بقي واقفاً. صرخ بعد فترة: "إني ما أزال أنتظر"! خافت

الأم، وسألت ما عسى أن يكون قد حدث. كانت كوهار واقفة تنظر إلى الصغير، وهو يرقد بين ذراعي أمه المذعورة، أخذت المرأة التي كذبت الصغير من أمه شاقّة طريقها بين النسوة، وقدّمته إلى الضابط مرتعدة من وجهه العابس. حمل الضابط المولود، وكشف عنه، وإذا به صبيّ. غضب، وناوله للعسكري الواقف بجانبه، وقال للمرأة التي كذبت: "لماذا لم تقولي بأنه صبي؟". سقطت عند قدميه، تطلب السماح، أما هو؛ فأخذ المولد، ورفعه بيد واحدة، وقال لها: "ظننتِ بأني سأقتله، لو قلت لي بأنه صبي؟".

"أعطيني الولد، اقتلني أنا، ودع الصغير يعيش"، صرخت المرأة، ضربها الضابط على فمها، وسقطت عند قدميه متوسّلة إليه، وصوت المولود يرتفع "سأقتل الصغير، وأقتلك أنت أيضاً"، قال الضابط.

المرأة النفساء غشي عليها حينما وصلها الخبر في الخلف بأن وليدها بيد الضابط. ركضت كوهار متوسّلة إليه أن لا يقتل الصغير، فرفع مسدسه، ووضعه على رأس كوهار "سأفرغ هذه الطبنجة في المرة القادمة في رأسك، إن تعرّضتِ لي، أيتها الصبية البلهاء، قومي من هنا". دفعها، ثم سقطت على الأرض، نهضت كوهار مسرعة، واختفت خلف الجموع.

جرّ أحد الجنود خلفه المرأة التي كذبت، وهي تبكي، وتتوسّل به أن يطلقها، فيما الضابط تبعه متأبطاً الصغير، وكأنه وسادة صغيرة. رفس الجندي المرأة خلف صخرة، فسقطت، وأمرها أن تركع، أعطاه الضابط مسدسه، وأمر أن يقتلها، وهي تتوسّل به أن يتركها تعيش، "سأكون خادمة عندك. لا تقتلني، أولادي صغار، وهم الآن ينظرون إلى ما يحدث". تجمّد الحشد على صوت المرأة، وهي تتضرّع إلى الضابط، انقطع صوتها مباشرة حينما سُمعت إطلاقة رصاصة. سقطت المرأة على ظهرها ميتة.

كانت عيون الجميع مثبتة على الضابط، وهو يحمل الصغير متسائلين ما عساه سيفعل به! تأملوا أن يشفق الرجل عليه، فلا يقتله، بل يعيده إلى والدية. التفت الضابط نحو الحشد، ورفع الصغير أمامهم، ثم حفر الضابط

بقدمه حفرة صغيرة، ثم أكملها العسكري الواقف بجانبه. انحنى الضابط، ووضع الصغير في الحفرة، وغطّاه بالتراب والأحجار عدا الرأس. ارتفعت أصوات النساء باكيات، وخبا صوت بكائه بعد فترة. لم يقدر أحد أن ينظر إلى المشهد، نفض الضابط يديه من الغبار، قالت إحداهن على مسمع من كوهار: "يالقساوة الرجل العثماني، لِيحمنا الله من بطشهم، ويرحم الله المولود الصغير. مَن له قلب أن يقتل طفلاً صغيراً؟". تخيّلت كوهار منظر الصغير، وهو يموت ببطء، ويختنق، بكت بكاء شديداً.

وقف الجميع باتجاه الصغير مصلّين على روحه حينما انقطع بكاؤه. تجمّع الناس حوالي أبوي الصغير الذي مات، أما بوغوص؛ فكان يبحث عن كوهار. قال لها حينما عثر عليها: "كاد الضابك أن يقتلك، لا تتهوّري".

"ظننتُ بأنه يمكن لي أن أخلّص الصغير من الموت".

بعد قليل، جاء صوت الضابط، وأمر الجميع بالتأهّب للتحرّك، اللفيف جمعوا أشياءهم، وانطلقوا، لم يجرؤ أحد أن يلتفت؛ ليرى إن كان الصغير ما يزال حياً.

أما المرأة؛ فغدت جثتها المتروكة طعاماً للطيور الجوارح. انعصر قلب الأم حزناً على مولودها، وبكت، وهي تمشي متكّئة على بعض النسوة مرة، ومرات على زوجها، بعد ساعات، درّ الحليب من ثدييها، وبكت أكثر، وهي تمسح الحليب بطرف ثوبها. إحدى النساء الحاملات طفلتها الصغيرة، وطلبت منها "أرجوك، خذي صغيرتي، وأرضعيها من حليبك".

أخذتها المرأة بين ذراعيها، وأرضعتها، وتوقّفت البنت عن البكاء للحظات ... بعد أن فرغت من إرضاعها، بكت النفساء بمرارة؛ لأنها تذكّرت ابنها الذي بالكاد قد ذاق طعم الحياة. إحدى العجائز أعطتها بعض الزبيب الأسود قائلة لها: "خذي هذه الكمشة، يا ابنتي، كلي وعوّضي عن الدم الذي نزفتيه".

خافت آناهيد على ولديها، وهما يمشيان في الموكب، "تعالا هنا، يا

ولديّ، ولا تبتعدا عني". أما هما؛ فبكيا من شدّة الجوع، قال هوسيب لأمه: "لدينا دجاجتان، لكنْ؛ أين البيض؟".

"الدجاجات لم تعد تبيض، يا ابني منذ تركنا بيتنا ... سنذبحهما، ونطبخهما حينما تسنح لنا الفرصة. ماذا سأطعم الصغيرين الآن؟" سألت آناهيد زوجها، هزّ ديكران رأسه، وقفت آناهيد حائرة، ثم فتحت بقجتها؛ إذ كان لديها القليل من الخبز. رطّبته بمربى المشمش، وأعطته للصغيرين. اشتهت كوهار أن تأكل قليلاً ممّا في أيديهم. لكن والدتها نظرت إليها نظرة عتاب.

كوهار قالت: لدي بعض حبّات الأرز في جيبي، سأطعم الدجاجتين، كانت تلك الحبّات قد سقطت منها قبل يومين، ولملمتها مع التراب، فتحت القفص، وأطعمت الدجاجتين الهزيلتين.

مشى الجميع مسافة، ولما مالت الشمس، حلّوا في بقعة جرداء. في تلك الليلة، نامت كوهار جائعة وحزينة، وهي تحلم بذكرياتها في القرية واضعة رأسها فوق السجادة الصغيرة. فجأة بكى الصغير كريكور من شدة الجوع، أما آناهيد؛ فشدت بطنه بخرقة من القماش؛ كي لا يشعر بالجوع في الليل، فينام دون حراك.

في تلك الأيام، لم يكن ممتاز آغا يغفو إلا بعد أن يطلب المغفرة من الله لما يفعله الأكراد في ديار بكر وقراها بالأرمن من قتل وجرائم، بأمر من الأتراك. في كل صباح، كان يجتمع برجاله الذين يحاربون السلطات وقراراتهم ضد نفي الأرمن وإبعادهم عن ديار بكر ذاع صيته حتى حدود وان. وعرفوا بأن هناك رجلاً، اسمه ممتاز، يخلّص رقاب الأرمن من خناجر المسلمين، بخنجره المتدليّ على جنبه، والمعلّق بحزام مصنوع من جلد الجمل.

الفصل التاسع
الموت في العراء

في الصباح، تحرّك الموكب ببطء مع حرارة الجوّ. المبعدون عن ديارهم كانت شفاههم قد يبست تماماً، وأقدامهم المتعبة بالكاد تجرّ النعل البالية. حملت كوهار أخاها الأصغر كلّما تعب، وكلما شعرت بذراعيها قد تخدّرتا، توسّلت له: "حاول أن تمشي". إن صادف، وكان بوغوص يمشي بقربها، حمله هو بدلاً عنها.

وذات نهار قائظ، أمر أحد الضباط أن يتوقف الموكب فجأة، طلب من رجاله أن يأمرا بعض الشباب الأرمن بنصب خيمة له وللضباط الذين معه. فقام بعض الشبان بتهيئة ثلاث خيم، وكانت متوسّطة الحجم، بأن ثبّتوا الأوتاد أولاً، ثم نصبوها، دخل الضابط بعدها، وناموا القيلولة.

جلس المرحّلون في حلقات، وبعضهم أخذ من حجارة الطريق متّكأً له تحت الشمس الساطعة. أصوات الصغار خبت من شدة الجوع والعطش. طلبت آناهيد من ابنتها أن تساعدها في تجهيز الأكل، فجمعت كوهار بعض الأعشاب اليابسة, وأضرمت فيها النار، بينما سلقت آناهيد قليلاً من البرغل. أكلت العائلة، ثم طلب كريكور من والدته أن يشرب، لكنها قالت: "الماء الذي معنا هو للغد، تحمّل، يا ابني، العطش اليوم، وسأسقيك غداً". بكى كريكور، نهره ديكران قائلاً: "لا تبك؛ لئلا تنشف مياه جسدك". أكل الجميع من البرغل الناشف بشراهة، لكن الصغير كريكور بكى دون انقطاع، وخاف أبوه عليه، ثم قال لزوجته: "أعطه؛ ليشرب، وغداً ربما سنقف بقرب بئر، أو جدول". سقت آناهيد الصغير جرعة واحدة من الماء، ثم غفا في

حضنها. تسلّلت كوهار؛ حيث كان بوغوص يجلس، وكانا يتبادلان النظرات دون أن يقولا شيئاً.

امرأة بقربها كانت جالسة، وبدأت تتذمّر "ماذا لو أن بعضاً من رجالنا قد تمكّنوا من هؤلاء؟ لو لم يكن أزواجنا ورجالنا جبناء؛ لدافعوا عن أنفسهم، وعنا".

ردّت عليها امرأة أخرى "أزواجنا وأولادنا وإلهنا كلهم غير قادين على أن يخلّصونا". سمعتهم امرأة متقدّمة في السن، كانت مستلقية بقربهم، وبّختهم "إن الله يستخدم هؤلاء؛ ليختبروا قوة إيماننا". شمّاس الكنيسة الذي كانت زوجته قد ماتت قبل أيام من الترحيل، بسبب مرض، ردّ عليها قائلاً: "كلامك صحيح، يا أختي". ثم أخرج كتاباً صغيراً للصلوات، وقرأ للمحيطين به بعضاً من المزامير. بعدها صلّى رافعاً الكتاب بيده، ثم تجمّع بعض الناس حوله ببطء بعيداً عن مرأى الجنود، وردّد الشّمّاس: "يا الله، لقد كنتَ مع شعبك في القفر، ولم تتركهم جياعاً، ولا عطشى، لكن هنا صبياً عطشاناً، وآخر حذاؤه قد تمزّق، نحن نطالبك بمعجزة عظيمة، يا أيها السيد، الشعب الضالّ في البرية لأربعين سنة، لم تبلَ ثيابه، ولم تتهرّأ نعله، بل الصغار فيهم قد كبروا، وكبرت أحذيتهم معهم، وثيابهم قد تجدّدت" ... صاحت امرأة مسنّة "أزدنا، لا تكفّ عن الصلوات" ...

رجف صوت الشّمّاس حينما صلّى "نحن اليوم لا يعوزنا شيء إلا مجدك، أيها الحنّان، انظر من عليائك، وأشفق علينا، لا تتوانَ".

بثّ الرجاء في قلوب الناس في أثناء ما كانوا هم جاثون على ركبهم، وكأنهم على وشك أن يصلّوا صلاة جماعية، نسوا للحظات جوعهم وتعبهم وآلام أقدامهم، بينما الحرّاس نصف نائمين قدّام خيم أسيادهم. "هل صحيح بأن آرا سيأتي؛ ليخلّصنا من أيدي هؤلاء؟ سأل شابّ الشّمّاس.

"لا أعرف غير الله مخلّصاً، يا ابني"، قال الشّمّاس. "يقولون بأن آرا مبعوث من الله لنا"، قالت امرأة.

"حاشا، يا ابني، إن كان الخلاص يأتي من غير الله وقدّيسيه"، قال الشّمّاس.

"لقد سمعنا بأنه يتنقّل على ظهر جواد مع سكّين حادّة في يده وبندقية، يقتل الأتراك والأكراد معاً ... لقد خلّص إحدى قوافل الأرمن، وأنقذ أرواحهم من الموت".

سألت كوهار بوغوص عن حكاية آرا، فقال لها "إنه يتنقّل من قرية إلى أخرى، ويقتل الكثيرين في يوم واحد. البعض لا يصدّق بوجوده، وآخرون يقولون بأنه يقتل في اليوم الواحد العديد من الأعداء، ويقطع آذانهم اليمنى، ويضعها في جعبته، في نهاية اليوم، وقبل أن ينام، يفرغ كيسه، ويحسب الآذان؛ كي يعرف كم رجلاً قتل، في الصباح، يعلّقها خارجاً؛ ليهاب منه كل أعدائه". رفّ قلب كوهار حينما سمعت عن شخص آرا، وتمنّت لو أنه يأتي؛ ليخلّصهم من بطش الأتراك. عاودوا المشي في ذلك النهار حتى بعد المغيب، ثم حلّوا فوق تلّة، وناموا هناك.

قبل الفجر، جاء صوت أحد الجنود آمراً "تأهّبوا للانطلاق. احملوا أشياءكم وأطفالكم، وتحرّكوا". طلبت آناهيد من ابنتها أن تحمل صندوق الدجاجتين، وكان ديكران منشغلاً في تنظيف ابنه كريكور بعد أن قضى حاجته خلف إحدى الصخور، مسح مؤخّرته ببعض أوراق الأشجار التي قطفها لهذا الغرض، والتحقوا بالقافلة. كانت كوهار تمشي وتفكّر ببوغوص، وفجأة شعرت به خلفها، نسيت جوعها وعطشها حينما رأته، اقترب منها، وهي حاولت أن تمسك بذراعه، لكن الشاب خاف أن يراها الناس.

"لولا الناس، لحملتُك بين ذراعي أنت والدجاجات، ومشيتُ بك، ولأخذتُ بين كل خطوة وأخرة منك قبلة".

ضحكت، وقالت له: "القبلات تُعطى، ولا تؤخذ".

"صدقتِ، يا حبيبتي". قال لها بوغوص، ثم أضاف "ليتنا كنا الآن في

قريتنا، نركض في الحقول الصفر. إنه موسم العنب والتين، ونحن هنا بعيداً عن ثمار حقولنا" ...

"لا تُحزِن قلبي أكثر، يا بوغوص، لديّ من الشجن ما يكفي قرية".

قال لها: "ذات يوم، سيكون لنا أشجار مشمش وتين، قولي لي، هل استرحت في الليل؟ أم كنت مثلي تتلوّين من الجوع والألم؟".

"الجوع، إن الله يختبر إيماننا، من خلال الجوع".

"أتعرفين بأن عطشي أقوى من جوعي؟ انظري إلى تلك الصخور النحاسية". قال بوغوص مؤشّراً إلى أكمة غير بعيدة قد مرّوا بها "أيا ليتها تسيل لنا جداول ماء".

"مَن يعرف! فلربما هناك ماء، ونحن هنا عطاش".

التفت بوغوص، ورأى آناهيد تجرّ قدميها جراً، خلفها كان زوجها يمشي بصعوبة، بوغوص قال لكوهار: "قفي، وانتظري والدتك؛ لتلحق بك. لا يجوز أن تمشي بعيداً عنهم، أنتم عائلة، والعائلة عليها أن تعيش معاً، أو تموت معاً". "لماذا تقول هذا الكلام؟"، عاتبته كوهار.

"لأني ذات يوم، سأتزوّجك، وأريدك أن تكوني معي في كل حين، ولن نترك بعضنا إلى الأبد".

"أعرف بأن الصبر مرّ، لكن ثمرته حلوة، هذا ما كانت تقوله جدّتي".

صمت العاشقان حينما اقتربت آناهيد منهما، كانت تحمل بيدها بعض الأمتعة، وعلى ظهرها، شدّت سجادة الحرير الصغيرة. قال بوغوص لها: "أعطني؛ لأحمل عنك كيس الأمتعة، أما هذه السجادة؛ فلماذا لا تتخلّصين منها؛ لتخفّفي عنك الحمل".

وبالفعل، بعد عدّة فراسخ، رمتها المرأة، لكنْ؛ سرعان ما التقطها شابّ من القرية، تحسّس نعومتها، وقال في قلبه: "هذه سجّادة ثمينة ... ".

مشى الموكب مسافة يوم كامل حتى وقع الجميع من شدّة التعب. وفي آخر اليوم، كان عطشهم وجوعهم لا يُحتملان. نظرت آناهيد إلى الدجاجين في القفص بيأس قائلة لزوجها: "ماذا نفعل بهاتين الدجاجتين؟". "هات؛ لأذبحهما، ونشويهما".

"ماذا لو شمّ الرجال رائحة الشواء" سيأخذون الدجاجتين منا، ويأكلونهما"، قالت آناهيد.

"لن يشمّوا الرائحة، سننتظر حتى يناموا، ثم نشوي".

"الأشرار لا ينامون، بل يسهرون، ويخطّطون لشرّهم". قالت زوجته له بيأس.

وما إن حلّ الليل، والجميع قد خلدوا للنوم، أخذ ديكران إحدى الدجاجتين؛ ليذبحها جانباً، بمساعدة ابنه هوسيب. أحد الجنود رصده، وقال لزملائه عما يحدث. اقتربوا من ديكران ظاناً بأن الرجال سيقتلونه، فخبّأ ولده الدجاجة خلفه. أمسكه العسكري، وقال له "ماذا تخبّئ وراء ظهرك؟".

"دجاجة" ... قال ديكران. أمسك الجندي الدجاجة، وقال "هل لديك دجاجة أخرى في ذاك القفص؟".

"نعم" ... قال ديكران، وهو خائف، أخذ العسكري الدجاجة من ديكران، وقذفها في الهواء، وتلقّفها زملاؤه ضاحكين.

"هات لنا الدجاجة الأخرى". أمر الرجل.

فتح ديكران القفص الصغير، وأخرج الدجاجة الهزيلة، وسلّمها للرجل.

نظّف الجنود الدجاجتين، وقاموا بشيّهما، وأكلهما، بكت كوهار وآناهيد على الدجاجتين، وناموا جميعاً في الليل، وهم يتضرّعون جوعاً. الصغير كريكور سأل والده: "لماذا أخذ هؤلاء منا الدجاجات؟"، "لأنهم رجال أشرار، يا بني، نم، يا صغيري، وغداً سأجد لك شيئاً تأكله". شعر ديكران بأنه أكبر

أحمق ورعديد على وجه الأرض؛ لأن أعداءه تمكّنوا منه مرتين، وأكلوا أربعاً من دجاجاته، مرة في بيته، ومرة في العراء.

في الصباح، حينما استعدّوا للمشي بأمر من الدرك، كان الجميع منهكين، وقد شرعوا بالمشي بتمهّل. لكنهم كانوا مدفوعين بأمل الخلاص بعد كل العناء الذي لقوه، وبأنهم سيعيشون رغم قساوة الأيام وثقلها، جرّوا أقدامهم المتعبة جراً، عساهم يصلون إلى مكان آمن بعيدٍ عن بطش العثمانيين.

بعد أيام وأسابيع من المشي تحت الشمس الحارقة، بدأ بعض الشيوخ والعجائز يسقطون في الطريق من الجوع والعطش. انهالت عليهم السياط، ما إن جاءتهم مساعدة ممّن حولهم من أقرباء. "امشوا، وكل مَن لا يقدر أن يُكمل معنا؛ ليحمله مَن معه". أمر أحد الضباط، وكان رجاله يركلون المبطئين في المشي في أثناء مسيرة القافلة، ويضربونهم بلا رحمة.

سقط رجل هرم كان متّكئاً على عكّازه، وقد انحنى ظهره من الجوع، ويبس جلده "اتركوني هنا؛ لأموت، وأنتم ارحلوا بدوني". قال لأولاده، وهم قبّلوا يده، ثم تركوه، ومشوا، فيما هو سقط في الطريق.

رأت امرأة مسنّة ذلك، وقالت: "ولا أنا باستطاعتي إكمال المسير، لا أريد الموت على أيدي هؤلاء". توسّلت لها ابنتها أن تمشي، لكنها جلست على الأرض رافضة التحرّك. بكت ابنتها، واسمها هاسميك حينما ضرب أحد العساكر بسوطه في الهواء آمراً إياها أن تترك والدتها. ناحت الشابة حتى جفّت أحداقها تماماً من الدموع، وهي ترى والدتها تسقط. رفعتها، وتشجّعت حينما سمعت صوت الشّمّاس من الخلف، وهو يصلّي:

"إلهي، أشكرك؛ لأنك ها أنت معنا،

لن تتركنا نموت في البرية المقفرة،

أنت إله موسى وإيليا،

لقد مشيتَ مع شعبك مثل غمامة في النهار،

وفي الليل، لهيب نار، كنتَ لهم،

أطعمتَ إيليا في العراء،

سخّرتَ طيور السماء؛ كي تطعمه،

نحن ننتظر يدك؛ كي تعمل في وسطنا ؛ لأنها لا تخيب أحداً،

مكتوب بأن طرقك ليست كطرقنا، نحن نطالبك بكل خيراتك؛ لأن يمينك تتحرك حينما نحن نطلب منك،

أيها الأب المبارك،

لن تدع شعبك يموت، أو يجوع، أنت الذي أمر بملء كِوار زيت الأرملة،

لن نقلّل؛ لأنك أنت هو أمس واليوم، وإلى الأبد،

ليس فيك تغيير، ولا ظل دوران،

إلهي، إن لم تكن حياتنا تشهد بعظمتك،

فليكن موتنا شاهداً على أنك أنت هو الإله الوحيد، وابنك يسوع الذي مات عن خطايانا" ...

دبَّ الأمل لدى الجميع، وتشجّع كل مَن في القافلة، واستعانوا قوة روحية من صلاة الرجل، كيما تساعدهم على البقاء وعدم الاستسلام للجوع والمنون. رفع أحد الرجال صوته: "باركك الله، يا شمّاسنا الطيّب"، وقالت إحداهن: "ما إن نستقرّ في مكان ما، سوف أنسج جوارب صوف لك ولولدك".

أما آناهيد؛ فكانت قد بدأت تفقد إيمانها، وتحاجي الله، وتقول له: "إن كنت أنت هو المخلّص، فلماذا لا تخلّصنا من هؤلاء الرجال الآن؟". سمعها

زوجها تبكي، قال لها: "لا تبكي، ذات يوم سنرجع إلى بيتنا". كان هو نفسه قد اشتاق إلى بيته ومحلّه في السوق، اشتاق إلى الكرمة التي في وسط بيته. قال في نفسه: "ربما هي الآن قد ظللت المكان". واشتهى أن يرطّب حلقه بعنب كرمته تلك، ثم تذكّر جاره الحداد. "تُرى أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟ هل يعتني بما نملك؟"، لكنْ؛ هيهات. فالحداد في أحد الأيام، أخذ عائلته في الخفية، ورحل عن القرية، بحث عنه الأتراك في كل مكان، ولم يعثروا عليه، كان قد ترك بيته بكل أثاثه، ورحل بعيداً خلف الجبال؛ حيث تسكن ابنته.

في اليوم التالي، تحرّكت القافلة، ولم يسمع من المرحّلين غير خطواتهم المتعبة وزعيق الغربان التي في الطريق وأصوات عربات الأتراك التي يجرّها الأرمن خلفهم مع صهيل الخيول الهرمة. اقترب بوغوص من كوهار، وقال لها: "لاتبتعدي عني، امشي بجانبي؛ كي يكون لديّ القوة؛ لأستمر في المشي".

"لن أتركك، يا بوغوص، يا حبيبي"...

"ذات يوم، سنرجع، يا كوهار إلى بيوتنا وقريتنا، وسأتزوّجك هناك، سأصنع السروج، وسيأتي الخيّالة من كل مكان؛ ليشتروا سروجي، من القوقاز سيأتون، ومن بلاد اليونان، ومن الفرنجة أيضاً، ولسوف أشتري لكِ مزرعة كبيرة".

"سيكون لنا أولاد؟"، قالت كوهار.

وهي تبتسم بخجل.

"نعم، سيمتطون الخيول، وسوف أقتني لهم مهراً، وأصنع سرجاً صغيراً مزيّناً بخيوط ذهبية، وأخرى من حرير خالص مستورد من قونيا".

"رقيق أنت، وجميل". قالت كوهار التي تخيّلت نفسها تتزوّج من بوغوص، وهي مرتدية فستان الزفاف المزيّن بالزهور وضفائرها الشقر مربوطة بأشرطة ملوّنة. مشيا بجانب بعضهما في الحرّ جائعين تعبين. شدّت كوهار حبلاً على خصرها؛ كي لا تشعر بالجوع. كانت تخجل من منظر فستانها الممزّق، ومن شعرها الذي علاه الغبار. كانت هي وبوغوص مبطئين في

مشيتهما، وقد أصبحا في مؤخّرة الموكب. فجأة وقف أحدهم، والتفت، وبدا الاندهاش على وجهه، ثم صرخ: "انظروا، هناك في الأفق لقد ظهر القدّيس غريغور ... إنه قادم لخلاصنا، سيرشدنا في الطريق بعد أن يعمي الأعداء".

خاف الجميع خوفاً عظيماً، وتوقّفوا ملتفتين وناظرين؛ حيث كانت السماء محمرّة، فجأة جاء صوت مروّع من السماء، كان البعض ممّن في الموكب يسبّح الله، والآخر يمدّ يده لهذا القادم الذي يشبه رجلاً جالساً في مركبة من نار، وحضوره زعزع المكان. نظرت كوهار إلى الظاهرة الغريبة، لكنها لم تر القدّيس. اهتاجت الخيول، واضطرب العساكر؛ إذ توقفوا هم أيضاً؛ ليروا ما كان يحدث، وهم يحدّقون في الأفق، وقد احتجبت الشمس خلف الغيوم الحمراء.

قال أحد الجنود لزميله: "لا يمكن لكل هؤلاء أن يكونوا على خطأ، لابد أنه حقيقي هذا الكائن الذي له يسجدون".

"لا تصدّق هذ الأكاذيب، هؤلاء يهذون من التعب والحرّ". كانت ساقا العسكري الآخر قد بدأتا ترتجفان من شدّة الخوف، سقط على ركبتيه، ثم جاء الضابط من خلفه، وركله قائلاً: "أنت أيضاً قد وقعت على ركبتيك مثل هؤلاء السّذّج، قم الآن". وثب الرجل من شدة الخوف من سيده الذي أمر جنوده أن يبدؤوا بضرب كل مَن توقّف عن المشي. ووقعت سياطهم على كل مَن كان في طريقهم، خصوصاً الذين كانوا أياديهم إلى السماء؛ إذ كانوا مأخوذين بالظاهرة الغريبة، بعد فترة قصيرة، هبّت عاصفة رملية متداخلة مع بعض الغيوم المرتعدة، هطل المطر بغزارة، وتبلّلت الأرض من تحتهم، ولم يقدروا على المشي. تلوّثت ملابسهم بالطين، وأصبحت خطواتهم ثقيلة. استمروا في المشي، وبصعوبة حتى غربت الشمس، وهكذا ناموا، وهم مبلّلون بحمأة الطين.

في اليوم التالي، سأل ديكران تاجراً ماشياً بجانبه، "أنت قد جبت البلاد البعيدة، وسافرت كثيراً، هل تعرف أين نحن"؟.

"لا أدري بالضبط، ابني يقول بأننا لسنا بعيدين عن نصيبين".

"أتظن بأنهم - قريباً - سيتركوننا في البرية، ثم نقدر أن نرجع"؟.

"نرجع؟ نحن قد خرجنا مرة واحدة دون رجعة، العصملي لن يأخذنا إلى قريتنا بعد كل هذ المسافة. أنا وأهل بيتي لن نرجع، حتى ولو أرجعونا بعد كل هذا العذاب، فلو رجعنا، لسخرت منا حقول طوباراز بهدوئها وسكينة آكامها".

"لقد وعدونا أن نرجع"، لكن ذلك لن يحدث". قال التاجر، ثم أضاف: "لقد سمعت بأنهم سوف يستخدموننا نحن الرجال في صناعة الأسلحة".

"كيف نعمل فيها، ونحن لا نعرف هذه المهنة؟"، تسأل ديكران.

"قد يدرّبوننا، هذا إن لم نمت في الطريق، قد ينهبوننا، ويأخذون كل ما معنا، ويرموننا لوحوش البرية".

"لسوف تنتزع بكلامك هذا ما بقي من أمل في قلبي".

"الموت مصيرنا، انظر ماذا فعلوا بنا حتى الآن، مَن لا يقدر أن يبصر من خلال الغربال، فهو أعمى". قال التاجر، ثم وارى وجهه، تاركاً ديكران مع أفكاره. في الظلام، سمع صوت امرأة تبكي، قفزت كوهار، وقالت: "هذا صوت هاسميك". وعرفت من النساء حولها بأن العجوز والدة هاسميك قد ماتت.

مشى الموكب ببطء في الصباح، كانت كوهار تمشي مع هاسيمك، وتعزّيها. وضعت كوهار على رأسها وشاحاً، غطّت به شعرها المتّسخ. بعض الشيوخ والصغار سقطوا في الطريق، ولم يجرؤ أحد أن يتلفّت خوفاً من سياط الدرك. وفي المساء، ما إن استلقت كوهار، ووضعت رأسها على نعليها حتى نامت، وبعد ساعات، استيقظت على صوت خطوات عسكري، يقترب من بين صفوف النائمين، وكان يحمل شعلة.

كتمت أنفاسها خوفاً، وغطّت وجهها؛ كي لا يراها حينما وقف فجأة. نظر إلى الشابّة هاسيمك التي كانت نائمة، وهي مكشوفة الساقين. رفسها العسكري بقدمه، واستدارت فزعة، قال لها: "اتبعيني". قامت هاسميك ببطء، وتبعته إلى خيمة سيّده. ظنّ الجميع بأنها قد ماتت، أو أن مكروها قد أصابها؛ لأنهم لم يسمعوا صوتاً. بعد ساعات رجعت، ولم يجرؤ أحد أن يسألها عما قد حدث. نظرات النساء والرجال تبعتها، إلى أن استلقت تعبى، سألتها إحدى الشابّات "ماذا فعلوا بك"؟.

"لا شيء، لقد سخّنت الماء للضابط، وحمّمتُه، ومسّدتُ له جسده".

"هل استخدمت الصابون؟"

"نعم".

"أعطني يدك؛ لأشمّها". مدّت يدها اليسرى للفتاة التي رفعتها إلى أنفها، وتعزّت برائحة صابون الغار، وهي تحلم بحمّام دافئ، يليه فراش مريح. أما هاسميك؛ فكانت بيدها اليمنى تحمل قطعة من الفحم.

"لقد قال لي بأنه في المرة القادمة سيعطيني بعض الخبز مع قليل من الجبنة".

"لماذا لم يعطك إياها الليلة"؟

"لقد أعطاني كمثرى، أكلتُها رغم عفونتها، وكان طعمها لذيذاً في فمي".

سألتها إحدى النسوة؛ حيث كانت تتسمّع الكلام الذي يدور بين الصبايا "هل عمل فيك الضابط شيئاً؟".

"لماذا تسألين؟ لقد كان رقيقاً معي" ...

"العصملي لا يعرف ما الرّقّة، سارق ومغتصب هو".

"لم يغتصبني" ... قالت هاسميك: "لقد دخلتُ فراشه بكل إرادتي؛

كي أكون في خدمته حينما يحتاج إلى امرأة، ولا يؤذي الصبايا الباقيات"، ثم وقفت، ورفعت صوتها بين النساء قائلةً: "اسمعنَ، يا صبايا، هذه الفحمة أخذتُها من بقايا حطبهم، لطّخن وجوهكن بسوادها؛ كي لا يكتشف الضباط الأتراك جمالكنّ" ... ثم انهارت باكية، ووضعت يديها تحت رأسها، ونامت بقرب كوهار.

في الصباح، مشت كوهار قرب بوغوص، لكن الشاب رفض التكلّم معها.

"ما بكَ؟ قل لي، هل عملتُ شيئاً يغضبك؟" "أنت تعرفين أني أخاف عليك من هؤلاء".

"ماذا تقصد"؟.

"صحبتُك مع هاسميك لا تعجبني، البارحة اغتصبها الأكراد، وغداً أنت"...

دافعت كوهار عن نفسها قائلة: "أنت تعرف بأني أفضّل الموت على أن يمسّني رجل من هؤلاء".

"كل مَن يمسّ شعرة من رأسك، سأقتله"، قال بوغوص.

"لا تخف عليّ".

"هاسميك العاهرة تلك، لا أريد أن تقتربي منها فيما بعد، أتفهمين؟" قال هذا، وكان وجهه السمح قد تغيّر إلى شرّ.

"حاضر ... كما تشاء"، قالت كوهار بحزن؛ لأنها كانت تعزّ هاسميك جداً.

عند الظهيرة، اشتدّ الحرّ، وكانت كوهار تشعر بأنه يكاد يُغمى عليها من قساوة الشمس. التفتت حينما سمعت صوت هو سيب على مقربة، وهو يبكي من شدّة العطش، ولم تدر ماذا تفعل؛ إذ سمعت والدتها تقول له:

"تحمّل، ياولدي، عسانا نصل قريباً إلى مكان فيه ماء، أنا - أيضاً - قد تعبتُ مثلك". كانت الأم تحمل ابنها الأصغر كريكور، وكلما تعبت، أعطته لزوجها الذي كان بدوره يكاد يخور من التعب، وفمه قد تيبّس. "احمل ابنك". اشتكى ديكران، وقال لها: "ليس الآن ..."، جاء صوت امرأة من الخلف، "اتركيه، وامشي؛ لأنك ستموتين من التعب"...

وضعت آناهيد ابنها الباكي على الأرض، واستدارت، ورمقت المرأة بنظرة باردة، لا تخلو من لوم وعتاب. ثم قالت المرأة مدافعة عن نفسها "لن تكوني الأولى، كثيرات تركن صغارهن، ومشين"...

"كيف أتركه؟ إنه ابني ... يا لقلبك القاس". قالت آناهيد.

"لا تسمعي كلامها، ستمرّ هذه الأزمة بسلام". قال ديكران لزوجته. كان كريكور يُبطئ في مشيته، كلما جرّته أمه خلفها بعصبية، وهو يبكي. نادت آناهيد ابنتها؛ لتساعدها "كوهار ... كوهار ... أين أنت، يا كوهار؟" سمعت الصبية صوت والدتها، ووقفت، فرأت أخاها الصغير لا يقوى على المشي. حملته، ثم توارت كوهار في زحام الناس الماشين في حرارة النهار، كان ثوبها قد بهت لونه من سخونة الشمس وقدماها تورّمتا من التعب، أما بوغوص؛ فكان يمشي في مؤخّرة الموكب بعصبية.

حينما حلّ المساء، سقط المرحّلون تعبين، ولم يقووا حتى على الكلام. ناموا، لكن الجوع سرعان ما أيقظهم. كانوا في كل يوم يستريحون فيه يشدّون أحزمتهم بإحكام، والنسوة يتأكّدن من أن الذهب ما يزال في جعباتهنّ مخبّأ بين طيّات ثيابهنّ.

أرسل تلك الليلة أحد الضباط رجلاً من رجاله؛ ليذهب، ويجلب فتاة جميلة؛ كي تقضي الليلة معه. دار الدركي بين اللفيف حاملاً مصباحه باحثاً عن شابة يافعة. وقعت عيناه على صبية حسنة المنظر. اقترب منها، وأمسكها من ذراعها، ولم تقدر أن تقاومه خشية أن يقتلها. حاول أخوها أن

يعترض الرجل، لكن البنت أنذرته بأن تكلّمت معه بالأرمنية قائلة: "سيقتلك، ويقتلني، إن وقفت في وجهه". قامت، ومشت وراء العسكري في الظلام، وتعثّرت. هُرعت وراءها هاسميك متوسّلة بالعسكري أن يترك الفتاة، ويأخذها هي بدلاً عنها. لكن الرجل لطم هاسميك على فمها، وقال لها: "أنا مَن يختار، وليس أنت". ظلّت هاسميك واقفة تراقب الرجل، وهو يدفع الفتاة العذراء آمراً إياها أن تكمل حتى وصلت إلى الخيمة، ثم دفعها، وولجت عند الضابط. في الداخل، انكمشت حول نفسها، وانزوت، أما الضابط؛ فكان مستلقياً في فراشه مغمض العينين.

وقف شقيق الفتاة، وكان اسمها مريم، ولم يعرف ماذا يفعل. حاول أن يلتحق بأخته في الخيمة، وينقذها، لكن والده منعه، وقال له: "لا تذهب، سيقتلوننا أنا وأنت وهي، اجلس ههنا، وصلِّ". فتراجع الرجل عن فعلته، ورفس الحجارة بغضب، ووقف بقرب والده، ثم سقط عند قدمي والده، ومعاً ناحا على عذريّة البنت. فجأة وقف الجميع، وعلت أصوات النساء والرجال بالصياح. صرخ الدرك بالجموع، وقالوا لهم أن يخفضوا أصواتهم. لكنهم تكلّموا كلهم في وقت واحد معترضين.

انزعج الضابط، وغضب من الأصوات القادمة، وأمر أحد رجاله أن يجلب بعض النساء؛ ليغنّين عند باب الخيمة؛ كي لا يسمع لغط الجموع.

خرج الدرك، واختاروا خمس فتيات، وأمروهنّ أن يتبعنهم. قالوا لهنّ: "قفن هنا قرب الخيمة، وغنّين أغنية بلغتكن".

رفضت الصبايا، وركضت إحداهن هاربة، لكن أحد العساكر جرّها من شعرها قائلاً: "ارجعي، وغنّي مع رفيقاتك".

"ماذا سنغنّي؟". سألت إحداهنّ نظيراتها.

"لنغنِّ لحناً حزيناً؛ كي يشعر هؤلاء بالذنب، إن فهموا" ...

" ماذا عن أغنية من أشعار الراهب الجوّال صايات نوفا".

بدأت الفتيات بالغناء بصوت خفيض، لكن عسكرياً أمرهنّ أن يرفعن أصواتهنّ. وهكذا غنّين والضابط الذي في الخيمة سمع أصواتهنّ، وهو يعرّي مريم من ثيابها المهترئة، قال لها: "اغتسلي هناك". شربت مريم من الماء المخصّص للغسل، غسلت وجهها. أمرها قائلاً: "اغسلي جسدك أيضاً". لكنها رفضت، وضع سلاحه على الأرض، وخلع ملابسه، وجرّ الفتاة بقوة، وأمرها أن تفتح ساقيها، "قلت لك اغتسلي، رائحتك نتنة". أخذها هو، وغصبها على أن تغتسل ممسكاً برقبتها. "هيا، تعالي"، قال لها بعد أن اغتسلت. دفعها الضابط نحو فراشه، فسقطت. بكاؤها لم يَصل إلى الأرمن خارجاً؛ لأن صوت الشابّات المغنّيات طغى على صوتها، وهنّ يغنين:

إن قلتُ إنكِ بنفسجة، قالوا إنك من الجبلِ أتيت، إن قلتُ إنك جوهرة، قالوا إنك مجرد حجر،

إن قلتُ إنك قمرٌ، قالوا من العلياءِ قد نزلتِ،

أنتِ مشرقة كالشمس التي تُبهر النظر، يا رائعتي، أعجوبةٌ كنجومِ السماءِ أنتِ، باقةٌ من أزهار الربيعِ أنتِ،

قيثارتي، لحني، أغنيّتي أنتِ" ...

بكت الصبية بمرارة في أثناء ما كان الرجل يغتصبها، وحينما فرغ منها الضابط، دفعها عنه، وقال لها: "الآن بإمكانك أن ترجعي إلى حيث كنت، بصقت على وجهه، فأمسكها الضابط، وصفعها، ثم أمر رجاله الواقفين خارج الخيمة أن يأتوا إليه "خذوها خارجاً، واعملوا بها ما تشاؤون".

"لنغتصبها"، اقترح أحدهم ناظراً إلى مريم، وهي تسقط عند قدميه.

اقترعوا مَن سيغتصبها أولاً، وكانوا خمسة. الأول اعترضته مريم بأن رفسته في بطنه، وحاولت الهرب، فأمسكها زميله، وهكذا لعنوها، وبصقوا في وجهها، وتمكّنوا منها بأن قبض كل منهم بطرف من أطرافها، فيما العسكري الأول يغتصبها "ضع يدك على عينيها"، قال لزميله الذي يمسك بذراعها

اليمنى، لم يسمع أحد من الجموع صوتها؛ حيث جاء صوت الفتيات، بكت مريم، وهي تسمع كلمات الأغنية؛ حيث غنت النسوة قائلات:

حورية من أعماقِ البحرِ أنتِ وظبية رائعة الخيال، أغنية المجالس أنتِ،

تراتيلُ الأديرةِ والرهبان،

وكرمة الشاعر أنت ...

فرغ العسكري الأول، والصبايا بعد ينشدن، صرخت الفتاة، ولم يسمعها أحد في أثناء ما كان الرجل الثاني يغتصبها:

كأنكِ البحرُ في أمواجه، حينَ تتمايلين في الكرومِ، قبلةُ الحبِ لكِ

كقبلةِ المتعبّدِ للصليب ...

حينما أدخل العسكري الثالث قضيبه في فرج الفتاة، أنينها ارتفع في قلب الليل، لكن صوت الفتيات طغى على صوتها، وهنّ يغنين:

بماذا أصفكِ، أبالحريرِ؟

فلابد أن يهترئ،

أبالشجر؟! كلا، فالشجر لابدَّ أن يتيبّس،

بالحورِ أشبهك؟!

والحورُ يُحرَق،

بماذا أصفكِ، حبيبتي؟! لم يبق شيء في الدنيا لم أذكرهُ،

جوهرةٌ نادرةٌ أنتِ، طوبى للذي يحظى بها ...

بعد قليل، انتهى الدركي الثالث من فعلته الشنيعة، وقام من فوقها، ورفع سرواله، وامتشق حزامه. تهيّأ العسكري الرابع؛ ليغتصبها، بينما صوت

مريم قد خاب من شدة الصيحات، وتوقّفت عن المحاولة لفكّ قبضة الرجال، وما إن فرغ من اغتصابها، أخرج الرجل عضوه من داخلها، وانساب الدم الحارّ على سيقانه، وتحضّر العسكري الخامس، لكن مريم المرمية على الأرض لم تكن تتحرّك، جاء صوت العسكري الرابع "اللعنة عليها، دمها قد وسّخ سروالي العسكري".

فتح العسكري ساقيها، وإذا بفتحتيها قد التقتا، وأصبحتا فتحة واحدة، قرب أحد العساكر شعلة النار بقرب وجه الشابة، وإذا بها نَفَس حياة، أمسكها من شعرها، وضرب رأسها بصخرة قربها حتى ماتت. كانت عيناها مفتوحتين، لكن نظرتها ظلّت تطارده بقية الرحلة.

انقطع صوت المغنّيات فجأة، ووقفن في الظلام ينظرن صوب مشاعل الدرك عن مسافة منهنّ، وشرعت إحداهنّ بالبكاء. جاء صوت عسكري قائلاً: "ارجعن، أيتها البائسات".

ركضت العذارى خائفات، من بعيد، كان بإمكان والد مريم أن يسمع لغط الرجال وأصواتهم، وشعر بأن ابنته في خطر، بقي واقفاً ويده على فمه كأنه يكتم صرخة، وهو ينظر باتجاه مشعل النار. تقدّم قليلاً، لكنه توقّف، ولم يجرؤ على أن يكمل، تبعه ابنه. ضرب الأب على صدره، وقال: "لعلّها بخير، صغيرتي مريم؟ اسأل المرنّمات عمّا حدث لابنتي".

سأل الشابّ البنات، ورفضن أن يتكلّمن.

"هل نذهب إليهم؛ لنرى ما يحدث؟" قال والدها.

نصحهما رجل حكيم جاء، ووقف خلفهما: "لا تتحرّكا من مكانكما، بل ارجعا؛ كي ترجع هي أيضاً سالمة". لكن الأب شعر بأن مكروهاً قد وقع لابنته "لقد سمعت أذني صرختها، آه، يا صغيرتي، أنت يتيمة ومسكينة، ماتت أمها يوم مولدها، وها أنا أراها تُغتصب أمامي دون أن أفعل شيئاً"، قال للذين تجمّعوا من حوله، وهو يضرب على فخذيه. فجأة تمكّن الجميع من أن

يروا أنوار مصابيح وثلاثة رجال حاملين جثة الشابة، ركض أخوها باكياً "مريم، أختي لقد قتلوها". تجمّع الرجال، وتقدّموا نحو العساكر، لكن العساكر قالوا لهم: "لا تقتربوا، وإلا قتلناكم"، وكان بيد أحدهم معول. "إنهم يحفرون قبر بنيّتي مريم"، قال الأب.

صلّى الشّمّاس وبعض الرجال على روح مريم، ثم ختم شيخ المصلّين دعاءه، وكأنه يخاطب الجمع لا الله "سيمسح الله كل دمعة ذات يوم، في يوم الربّ الذي فيه ينقذنا من أيدي الظالمين، في ضيقتنا دعوناك، يا ربّ، وإليك رفعنا صراخنا، وأنت من عليائك قد سمعت" ... وردّد الجميع معاً "آمين".

أما كوهار؛ فسألت إحدى النساء: "كيف ماتت مريم"؟ "كل امرأة تضطجع مع رجل مسلم تموت مثل مريم". أجابت المرأة، وتجمّدت كوهار في مكانها مرتعبة من الكلام ذاك.

في صمت الليل، سُمع نواح امرأة؛ إذ كان لهاسميك التي بكت رفيقتها مريم "قلتُ لهم خذوني أنا بدلاً عنها؛ لأنه أرحم أن امرأة واحدة تذهب فداء لكل العذارى، كم أنا تعيسة؛ لأني لم أستطيع أن أفديها؛ إذ كانت شابة في مبعة الصبا. فَحْمَتي التي في يدي لم تنفع؛ لأني سهوتُ أن أطوف بين الصبايا الجميلات، وأصبغ خدودهنّ بالسواد".

رجل واقف بقربها، سمعها، وشتمها "عاهرة أنت؛ لأنك ترغبين بالنوم مع الغرباء". لكن امرأة دافعت عنها "لماذا تقول هذا الكلام؟! بل هي قدّيسة، تضحّي بنفسها؛ لتنقذنا".

في منتصف تلك الليلة، استيقظ البعض، وحلفوا بأنهم رأوا وجه مريم في القمر، وكانت هالة نوارنية قد تشكّلت من حوله.

الفصل العاشر
ليرات الذهب

قبيل الفجر، حملت كوهار ووالدتها أشياءهم؛ لينطلقوا حسب أمر الأتراك. قال ديكران: "سنموت كلنا، إن بقينا في الطريق طويلاً "وبكت زوجته، وفتحت شفتيها الرماديتين المتشقّقتين، وقالت لكوهار: "يا ابنتي، إن متنا أنا ووالدك، فاعتني بأخويك الصغيرين، ولا تنسي أن تحدّثيهما عنا وعن أجدادك، قولي لهما بأن جدّتهم كانت امرأة قدّيسة، ولدت خمسة بنين، وأربع بنات، لم يعش منهم غيري. كان جدّكم صائغاً للذهب معروفاً بنقوشاته، وبشغل يده الدقيق. كان لديهم في البيت الكثير من الخدم، ولم يكن يتناول غداءه حتى يأكل خدمه أولاً. كان رجلاً طيباً، لكنه مات فجأة، وبقيت والدتي أرملة. هكذا هي الحياة، يا ابنتي، قاسية، لا ترحم اليتامى والأرامل"، قالت آناهيد، ثم أطلقت زفرة.

"إن تزوّجت، يا ابنتي، فلا تتخلّي عن أخويك حتى يكبرا، ويتعلّما صنعة، ثم يتزوجا"...

قال ديكران لكوهار.

"لا تقل هذا الكلام، يا أبي... سنعيش كلنا، ولن نموت".

قالت آناهيد لابنتها: "ليرات الذهب التي عندي، لك هي، وللأولاد، ستعيشون بها لفترة طويلة، ولن تموتوا من الجوع"...

"هذه قلادة ذهب، صاغها والدي، وهو قرص يرمز للأبدية، لعلّك تعطيها لأولاد أولادك؛ لنتخلّد في ذاكراتهم. خذيها وخبّئيها بين خصلات شعرك"...

فكّت كوهار ضفيرتها، ونظرت إلى العقد على عجل، ثم ضفرت السلسلة بين خصلات شعرها حتى اختفت في شعرها السميك الأشقر. أما العقد؛ فكان عبارة عن قرص محفور فيه ما يشبه زهرة مكوّنة من ثمانية أفواف متداخلة، وكأنها في حركة دائمة. "ليحمكِ هذا القرص، يا ابنتي، كلما نظرت إليه.

ظلّ المرحّلون يمشون، ولم يكن فيهم قوة، لا للمسير، ولا للكلام. عند الظهيرة، سقطوا منهكين، لكن الجنود أمروهم أن يستمرّوا حتى المغيب. جرّوا أقدامهم المتخشّبة خلفهم، ومشوا متعثّرين.

رصد أحد العساكر اقتراب زمرة من الدرك، وانتظروهم أن يصلوا. قال لهم القادمون بأنهم كانوا راجعين إلى طور عابدين بعد أن انتهوا من نفي إحدى القوافل حينما وصلهم أمر أن ينخرطوا مع باقي زملائهم.

"لقد جئنا كي نختار بعضاً من الرجال ممّن في موكبكم في العمل في مناجم الفحم التي تبعد مسافة يوم من هنا".

"أهلاً بكم، سأساعدكم في هذه المهمة"، قال الضابط المسؤول عن الموكب.

في الصباح، أكملوا طريقهم عابرين تلالاً جرداء، لكنْ؛ بعد ساعات، ومن بعيد، رأوا أرضاً خضراء في السهول التي أسفل الهضاب. فرح الجميع، وهم يرون نهراً صغيراً، يجري بمحاذاة الصخور، وحينما اقتربوا، رفض العساكر أن يشرب الأرمن من ماء النهر. قال أحد الضباط لزملائه: "هل سنسمح لهم أن يشربوا، ويعيشوا؟ أم سنتركهم يموتون من العطش هنا"؟.

"دعهم يموتوا". قال الضابط.

لكن الضابط الذي التحق بهم قال: "قلتُ لكم بأننا نحتاجهم في مهمتنا"، ردّ عليه الضابط الأول قائلاً: "حسناً" ... ثم قال للجموع بصوت عال: "سنشرب نحن أولاً وخيولنا، ثم تشربون أنتم وأولادكم".

نزل الجنود والضباط، وشربوا، وسقوا خيولهم، ثم وقفوا ساخرين من الأرمن، وهم يرونهم راكضين إلى النهر؛ حيث قفز البعض في الماء من شدّة العطش". املؤوا قربكم بالماء لخيولنا، واحملوها لنا". قالوا للرجال الأرمن.

تساءل أحد الرجال الأرمن: "فقط، لو عرفنا مايريد هؤلاء أن يفعلوا بنا، لارتحنا".

ردّ عليه بوغوص: "لقد سمعت عسكريين يتكلّمان، ويقولان بأنهم سيرحلون إلى ديار بكر بعد يومين. سيتركوننا نموت من الجوع ووحوش الليل ستأكلنا".

"أن نموت من الجوع، ونصبح طعاماً لبنات آوى، أرحم من أن نكون برفقة هؤلاء، يا ابني". ردّ عليه آخر.

"سيقتلوننا، ويأخذون نساءنا"، قال آخر. وأثار ذلك قلقاً عند بعض الرجال، وقال أحدهم: "سيغتصبون نساءنا حتماً، اللعنة"، قال بوغوص.

مشت القافلة إلى المجهول، وسرعان ما دارت إشاعة بين الجميع بأن النساء سوف يتمّ سلبهنّ واغتصابهنّ". ماذا سنفعل؟ لنعطي الليرات إلى رجالنا، ويبتلعوها؛ لئلا يسلبنا هؤلاء". قال إحداهنّ.

ناولت النساء في غفلة عن أعين الجنود ليرات الذهب إلى الرجال، وهم بلعوها. في تلك الأثناء، رصدهم أحد عساكر العصملي، وهو راكب دابته، وشى للضابط بما حدث "النساء الأرمنيات يعطين ليرات الذهب إلى رجالهنّ، والرجال يبتلعونها، لقد رأيناها تلمع تحت أشعة الشمس".

في أثناء سيرهم، اقترب الضابط المسؤول من نظيره الذي أدركهم، وقال له عن الذهب، وردّ عليه الآخر ساخراً: "أعرف بحيل الأرمن القذرين هؤلاء. ماذا تريدني أن أفعل؟ أن آمر رجالي ورجالك أن يضعوا أيادهم تحت مؤخّرات الأرمن، فيتغوّطوا لنا ذهباً"؟.

"طبعاً لا يمكن أن نفعل ذلك برجالنا، ويتحمّلون مشقة العبث في الوسخ".

"ماذا تقصد؟ تتكلّم وكأنك تسخر مني"، قال الضابط لزميله.

"لن أدع هؤلاء الرجال يرحلون بدون أن أحصل على شيء منهم"...

"من المؤكد أن ما ابتلعوه ليس بكثير، ستتحمّل عناء البحث عن الذهب بين قذارتهم، والنتيجة هي كمشة من الليرات".

ضحك الضابط، وقال "إنها ليست كمشة، هؤلاء يحملون معهم ثروة، نقدر أن نعيش منها أنا وأنت بعزّ مدى الحياة".

"لا أريد العزّ الذي يأتيني من القاذورات لرجال، تعبنا في توصيلهم إلى هنا، أريد أن أنجز مهمتي، وأرجع إلى بيتي وقريتي بعد أن أسوق العمال الجدد إلى مناجم الفحم، لدي أولاد صغار بانتظاري"، قال الضابط.

"أنت تقول بأني غير شريف"...

"لم أقل شيئاً، لكني لا أقدر أن أحتمل هكذا تهاويل. اغمس أنت ورجالك أياديكم في براز النصارى، أما أنا؛ فلا علاقة لي بالأمر، يالشقاوتي أنا ورجالي؛ إذ كنا راجعين إلى بلدتنا فجاءنا أمر بالالتحاق بهذه القافلة، أنتم من جميع القوافل المنفية، لماذا تريد أن تتقاسم الذهب معي، وليس مع باقي زملائك الضباط"؟.

"لو تقاسمت الذهب معهم، فإن ما سيصلني من الليرات هو الربع".

"ومعي سيصلك النصف، للأسف، لا أقدر أن أساعدك"، قال الضابط بتهكّم.

"سأقتلهم جميعاً، وأنت لا دخل لك بالأمر"، قال الأول بغضب.

"بإمكانك أن تأمرهم بالتغوّط، ثم تنظف الليرات من الوسخ". اقترح عليه زميله ساخراً.

"فكرة جيدة". قال الضابط، ثم أمر القافلة بالوقوف.

سأله نظيره الضابط بغيظ: "والآن ماذا تريد أن تفعل؟".

"لا تكن فطناً معي، علاوة على ذلك ها أنت تتدخّل في أمري، القافلة قافلتي".

بعد قليل، طلب الضابط من جنوده أن يفرزوا الرجال المشكوك بهم؛ كي يصفّوهم في خطٍّ مستقيم وراء تلّة صغيرة بعيداً عن مرأى بقية الجموع.

وقف الرجال الأرمن ممّن فرزهم الدرك في حلقة متهامسين فيما بينهم "ما عسى يريده منا هؤلاء؟"، قال أحد الرجال لديكران.

"لا أدري، أخشى أنهم يريدون أن يقتلوننا، أم سيطلقوننا في العراء؟".

تقدّم الضابط، وقال لهم: "اسمعوني جيداً، نحن نعلم بأنكم قد ابتلعتم ليرات الذهب، هي لم تعد ملككم، بل ملك الدولة العثمانية، مهمتي هي مصادرتها، ستموتون إن لم تسلموا لنا الليرات"...

قبل أن ينهي كلامه، ارتفعت أصوات الرجال "لا ذهب معنا، ولا فضة"...

أمر العساكر الرجال بأن يجلسوا، ويتغوّطوا. أما هم؛ فرفضوا، لكنْ؛ بعد قليل جاء العساكر، وأجبروهم "اجلسوا، وتغوّطوا؛ لئلا نقتلكم". وقف الدرك يراقبون ضحاياهم، وهم يخلعون ملابسهم. أحدهم رفع سرواله، وكان صاحب حقول في قريته، قال "لا أقدر أن أتغوّط؛ لأني لم آكل منذ أربعة أيام". وهكذا وافقه الرجال الباقون، وشدّوا أحزمتهم قائلين: "ولا نحن، إن كنتُم تريدوننا أن نتغوّط، فأعطونا شيئاً؛ لنأكل".

"نحن لا نقدر أن نتبوّل، ولا أن نتغوّط؛ لأننا جياع وعطاش"، قال شيخ.

صرخ ديكران: "لم نأكل الخبز من أيام، فكيف نأكل الذهب؟"، "ليضربنا الله، لو كان معنا أيّ ليرات ذهب"، قال رجل مسنّ.

اقترح أحد الدرك للضابط "لماذا لا نبقر بطونهم الليلة؟ سيكون القمر مكتملاً، ونقدر أن نجمع الذهب كله تحت أشعة البدر، فلا نحتاج أن نحرق فتائلنا، "راقت الفكرة للضابط، وتكلّم مع نفسه قائلاً: "عقاباً لنسائهم، سأجعلهنّ يفرغن أحشاء أزواجهنّ وآبائهنّ، فلماذا سلمنّ الذهب إلى رجالهن بدلاً أن يعطوه لنا"؟ ثم قال للضابط زميله: "هؤلاء لا يريدون التغوّط، سأقتلهم، وآمر زوجاتهم وبناتهم أن يخرجوا الليرات من بطونهم، لقد تمرّدوا ضدنا، لذلك فالموت جزاؤهم".

"لا تريد أن تلطّخ يدك بالبراز، لكنك تريد أن تلطّخها بالدم، أيّ رجل أنت؟".

"من الأسهل علينا أنا ورجالي أن تتلطّخ أيادينا بدماء هؤلاء الرجال على أن تتلطّخ أيادينا ببرازهم، أتفهم"؟ ردّ الضابط متحدّياً زميله.

"والآن تريد النساء أن يدخلن أياديهنّ في أحشاء الرجال، لا يمكن أن تكون بهذه القسوة، دعنا نكمل المسير، لبلادنا مشروع كبير في أثناء الحرب، والعمل في مناجم الفحم يعد أمراً مهماً، وها أنت مشغول في منفعتك الشخصية، لنتحرّك، وننطلق من هنا".

"سنبقى هنا الليلة، أنت تريدني أن أتركهم، وأرجع بلا شيء، هناك ثروة بيننا، لكنْ؛ اللعنة، إنها تسبح بين وسخ الرجال الآن". قال الضابط بعصبية.

"لا علاقة لي بمخطّطك، فأنت لا تقدر أن تتصرّف بدون أمر من إسطنبول"، قال الضابط الآخر، ومشى مبتعداً، وهو يلعن حظّه، ويلعن الحرب والمرحّلين. أما الضابط الأول؛ فأعلن بصوت عال لرجاله: "قولوا لهؤلاء الرجال أن يتقدّموا إلى الأمام، وإلا قتلتُهم".

تقدّم الرجال، والذعر في عيونهم، أمرهم أحد الجندرمة "اجلسوا هنا".

عند المغيب، ربط العساكر سجناءهم بحبال؛ كي لا يهربوا، ثم نادوا زوجات الرجال وبناتهم، وطلبوا منهنّ أن يلتحقن بهم بعيداً عن الجموع

والضباط. قالت آناهيد لابنتها: "سيقتلوننا جميعاً هنا، ويدفنوننا"... وقفت النساء رافضات الانصياع لأوامر الدرك "أنتم أشرار، وستلحقون الأذى بنا وبأزواجنا"، قالت إحداهن. صرخ بها عسكري ناهراً إياها "اخرسي، وافعلي ما آمرك به" ... ثم مشين باكيات، ووقفن أمام أزواجهنّ مكسورات.

تقدّم ثلاثة عساكر، وفي أياديهم سكاكين، وفكّوا الرجال المربوطين. "سيقتلوننا". صرخ شيخ مسنّ، "اقتلونا نحن بدلاً عنهم" ... قالت آناهيد، وهي خائفة، أما كوهار؛ فارتجفت خلف والدتها، وكانت تصلّي؛ كي يعدل الأكراد عن مكائدهم.

طعن أحد الدرك رجلاً أصدر صرخة، أخافت ديكران حد الموت، وكان واقفاً في الطابور ينظر بحزن إلى زوجته وابنته. سقط الرجل، وبعدها علت أصوات باقي السجناء طالبين الرحمة. اقترب الدركي من ديكران، سقطت آناهيد على ركبتيها حينما طعن العسكري ديكران مغطّية عينيها؛ كي لا ترى زوجها يسقط ميتاً، صرخ ديكران صرخة حادّة، اخترقت نفس كوهار ووالدتها حينما أدخل الرجل خنجره في بطن ديكران.

مع سقوط كل رجل مقتولاً، ولولت النساء بصوت عال، وسُمعت أصواتهنّ في العراء من قِبل باقي الرجال والنساء والأطفال في الموكب.

أعطى العساكر السكاكين للنساء، وأمروهنّ "والآن ابقرن بطون رجالكنّ، وأخرجن الذهب"...

سقطت السكاكين من أيديهنّ، وصرخن، ركضت إحداهنّ، وطعنت العسكري في قدمه. صرخ شاتماً إياها، ثم أمر زميله أن يقتلها. لكن الدركي جرّها من شعرها، ولكمها، سقطت على الأرض، وقال لها: "مَن مِن الرجال قريبك؟" لم تردّ عليه. سأل امرأة بقربه، وهي - بدورها - خافت لئلا يقتلها، فأشارت إلى الجثة. غرز الجندي سكّينه ببطن الرجل الميت، وقال للمرأة: "قومي حالاً، وشقّي بطنه، وارمي بليرات الذهب في هذه الصينية". ثم بسط العساكر جثث الرجال الباقية، وقالوا للنساء: "الآن نريدكنّ أن تشققن

بطونهم، وتدخلن أياديكنّ في أجوافهم؛ لتجدن الذهب، ثم تضعنه في الصينية، ويلكنّ، إن أخذتنه".

النساء صرخن مذعورات، شابة يافعة فقدت صوابها، وبقيت جالسة بجانب جثة والدها، ولم تسقط من عينها دمعة.

نادى عسكري زميلاً له، وكان يحمل بيده المشعل المتّقد، قائلاً: "لا تبرح من هذا المكان، أريد أن أسمع رنين الذهب في هذه الصينية، وأرى لمعانه تحت أشعّة القمر".

صوّب الأتراك بنادقهم على رؤوس النساء، وهنّ يُدخلن أياديهنّ في بطون أزواجهنّ وآبائهنّ. واحدة أخرجت أمعاء زوجها، ورفعتها، وبدأت تعصرها، فيما كانت تنزلق بين يديها، وفي الوقت نفسه تتقيأ؛ إذ ارتفعت الرائحة إلى أنفاسها.

آناهيد رفعت صوتها صارخة حينما بقرت ابنتها بطن ديكران، هكذا قوّرتها دون أن تبكي، صرخت آناهيد صرخة قوية، فسُمعت في كل الوادي، وخاف الجميع حتى الدرك أنفسهم قد فزعوا. أما كوهار؛ فشرعت بتفريغ أمعاء والدها بأطراف أصابعها. أغمضت الشابة عينيها؛ كي لا ترى المنظر. بعد قليل، تقوّت الأم، بسبب خوفها على ابنتها. ساعدتها بأن شدّت على ركبتي ابنتها.

"لا تخافي، الله سينتقم من هؤلاء". قالت آناهيد باكية. فجأة فتحت كوهار عيناً واحدة، ورأت بطن والدها المقوّرة، ثم أُغمي عليها. تقدّم دركي منها، ورفسها، "قومي، لا وقت لدينا".

أما آناهيد؛ فقط أدخلت يدها في جيب سترة زوجها، وعثرت على مفتاح بيتهم. وضعته بين طيات ملابسها في غفلة من عيون العساكر.

مرّ الوقت بطيئاً بين الجموع، فيما كتم البعض أنفاسهم، والبعض الآخر راحوا يتساءلون فيما يحدث خلف التلّة.

الضباط أنفسهم لم يكونوا يعرفون ما الذي يجري حتى قال أحد العساكر بأن الضابط المسؤول قد قتل بعض الأرمن. سألوا نظيرهم المشرف على مقتل الرجال، وكذب "هؤلاء يستحقّون الموت، لقد خالفوا أوامري".

هكذا وقف العساكر حرساً على النساء، وهنّ يجتهدن حتى ساعات الفجر في البحث عن الذهب بين قاذورات الموتى. مع بزوغ الشمس، التمعت كومة الذهب في الصينية، وحينما لم يسمع الجنود بعد رنين الليرات، ذهب أحدهم إلى الضابط، وقال له: "لقد شارفنا على الانتهاء، وقد تعبنا الليل كله، ونحن نراقب هؤلاء النسوة. سنطلب منهم أن يدفنوا موتاهم، نريد أن نرتاح قليلاً".

قال لهم: "مروا النساء أن ينظّفن الليرات بالتراب. ثم ضعوها في كيس محكم. لا أريد ليرة ناقصة، أتفهمون؟". نظّفت النساء الليرات بعد أن مرّغنها في التراب، وعدّ الجنود الليرات في الكيس، ولم يتجاسروا أن يسرقوا منها. النساء رجعن؛ حيث كان الحشد، شبه مخبولات كنّ، فلم يتجرأ أحد أن يسألهنّ عما حدث، قال البعض بعد أن رأوا الدم قد لوثّهنّ حتى الركب، وثيابهنّ قد تخضّبت بالدماء: "إن شيئاً" لا يمكن أن نتخيّله قد وقع، أما كان الأفضل أن نموت على أن نرى ما قد حدث الليلة؟".

النسوة ساعدن الفتيات اليتيمات والأرامل على نزع ثيابهنّ المدمّاة، وأُعطيت لهن ثياب عبارة عن خرق، جمعتها النساء. الأخوان الصغيران بكيا حينما رجعت أمهما آناهيد مع كوهار، وركضا نحوها، امرأة واقفة بقربهما منعتهما من أن يلمسا والدتهما المضرّجة بدماء ووسخ زوجها "تعالا، يا صغيريّ، أمكما متعبة، وتريد أن ترتاح".

"أين أبي؟" سأل كريكور أخته، وهي لم تردّ. انتظرت كوهار لساعات حضور بوغوص؛ وتعزيته لها، بحثت عنه بين الوجوه، ولم تجده.

أمر العساكر بعض الرجال الأرمن، فتقدموا؛ ليأخذوا الجثث، ويحفروا لها قبوراً. أعطوهم المعاول. فباشروا بحفر حفرة كبيرة. رفع أحد الرجال صوته،

ولعن الأتراك بالأرمنية. أمر الجندرمة الرجال أن يحملوا الجثث، ويرموها في الحفرة، رأى الرجال الأرمن بشاعة الجثث حينما اقتربوا منها، بكى الشّمّاس بصوت عال، أما الباقون؛ فبلعوا دموعهم، وألقوا بالموتى في الحفرة. مسح الشّمّاس دموعه، وهو يرى وجوه الرجال تتوارى تحت التراب، ثم تأهّب الرجال للصلاة على أرواح موتاهم، لكن العسكري المسؤول منعهم قائلاً: "لا وقت لدينا لصلاتكم، هؤلاء ذاهبون إلى الجحيم؛ لأنهم قد رفضوا أوامرنا". رفع أحد الرجال صوته "دماء رجالنا ستصرخ في هذا الوادي إلى الأبد". رموا بالمعاول عند القبر الجماعي، ومشوا، رفع أحد الرجال صوته ناشداً؛ ليشجّع إخوانه الراجعين من الدفن:

"آرا البطل هو ذا آت راكباً فرسه، ويطير فوق السحاب،

الرجل التركي يصبح فأراً أمام المغوار آرا،

يقتله البطل، وعلى جثته يقف، ويرفع رايته الأرمنية،

وحينما لا يقتل،

يرسل لعنته أمامه، فتُهيّأ الطريق له، السنابل التي تحت أقدامه أغلى من معيار الذهب،

ونحن هنا؛ لنخبر ببطولاته التي لا حدّ لها،

متعطّش هو للحقّ، لا للدم،

وكلما قتل تركياً واحداً، عاش عشرة أرمن،

هكذا لا ينام الليل بطلنا،

وحينما قيّده الأتراك،

أواه، عشرة رجال لم يقدروا أن يربطوه،

بصق في وجوههم، ثم اختفى من أمامهم مثل نبي،

سيأتي قريباً؛ لينقذنا من هؤلاء، لأن قوة ذراعه لا تُقهَر".

لم يعترض الشّمّاس على تلك الأغنية؛ إذ شعر الرجال الذين معه ببعض الاطمئنان، وزال عنهم التعب، وهم يفكرون في البطل آرا، لعله يأتي وينقذهم من مكائد الأتراك التي تُنفّذ على أيدي الأكراد، بعد ساعات، مشت القافلة، وكان لونهم قد أصبح بلون التراب.

الضباط الثلاثة الذين سمعوا بخبر ليرات الذهب بعدما افتضح، وقفوا بعد ساعات أمام خيمة الضابط الذي أمر ببقر بطون الرجال، وقالوا له: "لقد سمعنا بأن لديك كيساً من الليرات، نأمرك أن تقتسمها معنا، وإلا شكوناك عند والي ديار بكر".

اغتاظ الضابط لاعناً زملاءه في داخله، وخاف منهم؛ لئلا يقتلوه، فدعاهم للجلوس في خيمته، واقتسموا الليرات، فيما بينهم.

وجدت كوهار صعوبة في فتح عينيها؛ لتستقبل أشعّة الشمس في ذلك الصباح، تذكّرت منظر والدها المقتول وحرارة أحشائه وملمس دمه وأمعائه ورائحته العفنة، تمنّت لنفسها الموت. الجموع كانوا على وشك الرحيل بعد أن جاء أمر من الضباط، وكان الصغار يساعدون الكبار في لملمة أكياس الأمتعة، فتحت كوهار صرّتها، وأخرجت الحذاء الذي كانت قد هيّأته ليوم زفافها، وانتعلته. مشت في الطريق الوعرة، وهي تبحث عن بوغوص. عثرت على عمّه السروجي، وسألته عن حبيبها، فهمس في أذنها "بوغوص قد تركنا، وهرب قبيل الفجر". شعرت كوهار حينما سمعت ذاك الكلام بالغثيان، وبأن الحياة لا تستحقّ أن تُعاش بدون أن يكون بوغوص فيها. لم يكن هناك في تلك اللحظة بالنسبة لها شيء، يُقاس بحجم تعاستها ومرارة حزنها، مشت ناسية جوعها وعطشها، بل حتى مقتل والدها، بينما هي تشقّ طريقها بين الجموع.

كانت أفواه الناس قد نشفت تماماً، وابيضّت. أما أقدامهم؛ فتشقّقت،

وبدأت تنزف من قساوة الطريق. البعض كانوا يمشون حُفاة، وآخرون انتعلوا ما كانوا قد أخذوه من جثث الذين سقطوا في الطريق. كثير من الشيوخ والصغار كانوا على وشك الانهيار، أما الشبان؛ فقد ابيضّ شعر رؤوسهم من حرارة الشمس، بشكل ملفت. الصغار في تلك الأيام بكوا كثيراً من شدة الجوع والعطش وعدم الراحة؛ إذ كان القمل قد غزا رؤوسهم، واعتاش على دمهم، فلم يعرفوا الراحة، لا في الليل، ولا في النهار. كوهار نفسها كانت قد بدأت تحكّ تحت إبطيها بشدة، نظرت، وإذا بحبيبات صغيرة حمراء متقرحة قد نبتت حول شعر أبطها. شعرت بأنه من شدة فراغ بطنها بأن ظهرها قد أوشك أن ينطبق مع بطنها؛ إذ انحنت، وكأنها امرأة هرمة، كانت تشعر بالذنب حينما تستند على والدتها في أثناء المسير، وتتمنى لو كان بوغوص معها؛ ليشدد من عزيمتها.

بعد أيام قليلة؛ إذ كان الوقت عند منتصف النهار، تقدّم الضابط الذي التحق بالموكب مع أحد رجاله، وقال للضابط المسؤول: "هذا الدركي يعيش قريباً من هنا، سأبعثه إلى قريته؛ لأن خدمته قد انتهت".

"هل هو كردي؟".

"نعم، اسمه إبراهيم، وهو من قرية تُدعى فنديك غير بعيدة".

"لا أقدر أن أصرفه الآن". قال الضابط.

"لقد وعدته بأن أطلقه حالما يقترب من قريته". قال الضابط الأول.

نظر الضابط إلى الرجل، وكان إبراهيم ضعيف البنية وملابسه العسكرية قد اتّسخت، وأزرارها قد سقطت "حسناً، قبل أن ترحل، اختر لنفسك امرأة من نسائهم ... تعال خذ هذه المرأة مثلاً"، قائلاً، وهو يومئ إلى إحداهنّ "ماذا عن هذه؟"، قال، وهو يمسك بصبية صغيرة "أم أنها صغيرة؟ وأنت تفضل الناضجة مثل هذه؟". قال ضاحكاً، وهو يشير إلى امرأة شابة. لم يقل إبراهيم شيئاً. قال الضابط لإبراهيم الكردي، وهو يشير إلى آناهيد: "تقدّمي

أنت... بلى، أنت ذات الحواجب الكثّة". أمرها الضابط "خذ هذه، فهي مناسبة لك، هي وصغيراها اللذان سيصبحان خادمين عندك".

حدّق إبرهيم في وجه آناهيد؛ إذ كانت الشمس قد رسمت بقعة بنية كبيرة على جبينها، شفتاها كانتا قد تشقّقتا - أيضاً - بفعل الجفاف، افتعل الرجل رضاه بالمرأة، كي يتركه الضابط يرحل بسلام، ولا يغيّر رأيه. أومأ برأسه، وسأل الضابط: "سآخذها، هل تظنّ أنها بصحة جيدة، سيدي؟".

"لابد أنها ستعيد صحتها بعد فترة، أما الولدان؛ بعهما، إن لم يكونا نافعين لك".

أمر الضابط دركياً بأن ينتزع آناهيد من أيادي النساء. شدّها من رسغها، بينما الغلامان يصرخان خلفها: "لا ... لا نريد" ... قال هوسيب.

حينما رأت كوهار هذا كله، اختبأت وراء بعض النسوة، ولم تجرؤ أن تبكي بصوت عال؛ لئلا يأخذوها هي أيضاً محظية مثل والدتها.

قال الضابط ساخراً حينما سقطت آناهيد عند قدميه متوسّلة به، والولدان يبكيان خلفها، "هي لك، لا تطعمها كثيراً؛ لئلا تسمن، وتصبح رائحتها كريهة، هكذا هنّ المسيحيات لحومهنّ زنخة مثل رائحة الخنازير".

قال إبراهيم في سرّه، وهو ينظر إلى آناهيد وثوبها الممزّق، "يكفيني أن أطعم امرأة تنتظرني في قريتي، ماذا سأفعل بهذه؟". تأهّب الرجل للرحيل حاملاً أمتعته على ظهره، فيما أمر الضابط المرأة أن تقف، وتلتحق به. خافت، ووقفت ناظرة إليه، ولعنته باللغة الأرمنية، صرخ بها: "اذهبي، أيها الملعونة إلى مصيرك". أخذ إبراهيم بأيدي الصغيرين، وهما يبكيان، وقال للمرأة بعصبية "اتبعيني" ... ثم انطلق. تبعته آناهيد متلفّتة، وهي تنظر بين الجموع، لعلّها ترى ابنتها، لكنها لم تر غير النسوة والرجال واقفين ينظرون إليها نظرة خاوية. انفطر قلب كوهار من شدة الحزن، وهي ترى والدتها تبتعد مع الصغيرين، وبعد قليل، أغمي عليها، النساء وضعن حبّة تين ناشفة في

فمها، ففتحت عينيها، وبكت متذكّرة والدتها وأخويها، ثم أُغمي عليها مرة أخرى حتى أسندها بعض الرجال.

مشت آناهيد مع ولديها الصغيرين خلف الرجل ذي الخطوات السريعة، وبعد مسافة توقف، وتلفّت، ورأى آناهيد خلفه منهكة القوى، جلس على الأرض، ولفّ سيجارة، وبدأ يدخّن. أومأ للمرأة وولديها أن يجلسوا بقربه. قال كريكور لأمه: "أنا جائع". بكى أما آناهيد، فعانقته، ولم تكن تملك شيئاً؛ لتطعمه. قامت باحثة بين تشقّقات الصخور عن عشب، فلم تجد غير بعض الحشائش، التقطتها، وأعطتها لصغيريها، فأكلا، بعد قليل، شعر هوسيب بالألم في بطنه، وتلوّى على الأرض. صرخ بها الرجل "ستقتلين الولدين بأعمالك هذه".

حطّ طائر الشقراق فوق شجيرة صغيرة على مقربة منهم؛ حيث كانوا جالسين، نظروا إليه، وإذا به ساكناً. تشاءم منه إبراهيم، وقال للمرأة: "قومي؛ لنتحرّك". تبعته آناهيد والغلامان اللذان بالكاد مشيا، التفت الرجل، وقال لها: "أسرعي، يا امرأة، وإلا تركتك هنا".

بعد قليل، سقط كريكور من الإعياء، فتحنّن إبراهيم عليه، حمله، ومشى. عند المغيب، وقف الرجل، وفتح صرّته، وأعطى آناهيد وولديها القليل من الماء، فشربوا. وقال لها: "هنا سنستريح حتى الفجر". ثم أخرج قطعة صغيرة من الخبز التي قضم منها قضمتين، وأعطى الباقي لآناهيد، فقسمته، وأعطت للصغيرين، ولم تأكل غير الفتات الذي سقط في راحة يدها، فرش الرجل ثوبه على الأرض، ونام. وهكذا نام الغلامان من شدة التعب، أما آناهيد؛ فبقيت عيناها مفتوحتين مفكّرة في كوهار حتى الفجر.

في الصباح، عاودوا المشي. وفي الطريق فوق الآكام المرتفعة، رأت آناهيد شجرة تين برّي، فركضت، وإذا بالشجرة محمّلة بالتين الناشف؛ إذ كان شهر أيلول قد حلّ. قطفت التين، وأعطته لولديها. مشوا تحت أشعة

الشمس الحارقة؛ إذ اتّكأ إبراهيم على عصا يابسة غليظة، التقطها من بين الأحجار التي كانت متوزّعة على طول الطريق الوعرة التي مرّوا بها، غطّت آناهيد رأسها بوشاح ممزّق، وهي تتأوّه من الألم والتعب، أما ثوبها؛ فكان قد تهرّأ، وبهت لونه من شدة الحرّ والوسخ العالق به. كان الحر شديداً، ولم تشأ أن تمسح حبات العرق عن جبينها، بل وقفت، وطلبت من ابنها كريكور أن يفتح فمه، فمسحت بأصبعها العرق، فتقطر في فم الصغير.

في اليوم التالي، وعند الفجر، وقف الرجل، وقال لآناهيد: "سأترككم هنا، انزلي بهذا الاتجاه، وأشار بيده إلى الجنوب": هناك ستكونين في أمان بعيداً عن بطش الأتراك أنت وولداك. لديّ عائلة وأولاد صغار، ولا أقدر أن آخذكم معي، خذي قطعة الخبز هذه، فهي كل ما أملك من طعام، ستجدين حتماً في الطريق جدول ماء، أو نهراً صغيراً".

هكذا انطلق الرجل تاركاً وراءه صوت أقدامه مرتطمة بالحجر حتى اختفى في الأفق، خافت آناهيد من شدة الصمت ووحشة العراء، وهي تسير مع صغيريها اللذين كانا تعبين. وبعد مسافة، وقفت، واستلقت على الأرض. سقط الصغيران عند قدميها من الإعياء. احتضنتهما، ورقد الثلاثة محتمين ببعضهم من الخوف عند المغيب، استيقظت آناهيد، وتوارت عن صغيريها خلف صخرة، وكانت تتغوّط دماً، سأل هوسيب أمه حينما سمعها تتأوّه: "ما بك، يا أماه؟".

عرفت آناهيد بأنها ستموت، ولم تردّ عليه؛ إذ مشت ببطء، واستلقت تحت شجيرة، وقالت لولديها، وفي صوتها حشرجة: "أكملا أنتما الطريق بدوني، سأذهب عند أبيكما، ابحثا عن أختكما كوهار، ذات يوم، سألتقيكما في السماء، يا صغيريّ، اعتن، يا هوسيب، بأخيك، وأنت يا كريكور، اسمع كلام هوسيب". قالت، وغابت عن الوعي لساعات، استيقظت بعدها، ثم احتضرت.

بكى هوسيب حينما رأى بأن والدته قد فارقت الحياة، أما كريكور؛ فكان يظنّ بأن والدته نائمة، قال له أخوه الأكبر، وهو يمسح دمعته: "والدتنا ماتت، ولن نراها بعد اليوم".

"ماتت؟ أتقصد بأننا لو سقيناها بعض الماء، سترجع لتحيا مثل شجرة؟".

"كلا، سندفنها، مثلما فعلوا بجدّتنا".

لم يكن كريكور يعرف معنى الموت والدفن، لكنه ركض بعيداً، وجلس عند جذع شجرة يابسة.

كان نصف القمر يشعّ بنوره على الصغيرين، لكن صوت الريح أخافتهما. شعر هوسيب بأنه وحده في الكون، ونام من الخوف بجانب والدته، أما كريكور؛ فبقي ينظر إليهما، وكأنهما غريبان عنه، في الصباح، بدأ هوسيب بالحفر، وطلب من أخيه "تعال، وأعنّي".

"ماذا تريد؟"

"احفر معي قليلاً".

"لماذا؟".

"كي ندفن أمنا؛ لئلا تأتي الطيور، وتنقضّ عليها، وتنهشها"، لكن كريكور ركض مبتعداً، وبقي هوسيب وحده يحفر مزيلاً الحجارة عن بقعة منبسطة، وبعد أن انتهى، طبع قبلة على جبين أمه، ثم دحرج جثتها في الوهدة، وقبل أن يواري وجهها في التراب بحث في جيوبها، فعثر على منديل ملفوف، فيه صليب من الذهب، ومفتاح بيتهم، أخذ الصليب، وترك المفتاح، ثم غطّى وجهها بالتراب، وهو يبكي بأعلى صوته. بعدها صنع من أغصان شجيرة صغيرة متيبّسة صليباً، ووضعه عند القبر، ثم أمسك بيد كريكور، وانطلقا، سارا نحو الجنوب دون أن يعلما إلى أين هما متّجهان.

أما بوغوص الشاب الذي ظلّ يمشي في درب غير مطروقة؛ فاستعار قوة

من روحه اليافعة وحبّ الحياة، بعد أيام كثيرة من المشي في القفر، لم يعثر على أية قرية، يأوي إليها، فبقي يهيم في الأرض، مرة يعثر على بئر جافة، فيخيب ظنه، وأخرى على نهر صغير فيشرب منه، ويغسل ملابسه الممزّقة، ويبقى هناك حتى إذا قرصه الجوع، تحرّك حتى يجد بعض الأشجار فيأكل من أوراقها ويغفو تحت ظلالها.

الفصل الحادي عشر
صيادو طيور الصحراء

هكذا كان عدد أفراد القافلة في نقصان بين مَن سقط في الطريق وبين المقتولين، أمر الضابط العساكر "افرزوا أكبر عدد من الرجال القادرين على العمل، على أن تكون أسنانهم قوية، وعظامهم صلبة" ...

انتخب الجنود الكثير من الشبان الأقوياء بين الذكور، وتركوا الضعفاء منهم، بعدها أمر الضابط: "لديكم دقائق قليلة فقط؛ لتجمعوا فيها مالكم، وتتبعوننا".

"لن نتحرك من هنا، إن لم تقولوا لنا إلى أين نحن ذاهبون؟"، قال أحد الشبان.

"لا تتكلموا، وإلا قتلتكم جميعاً"، قال الضابط مهدّداً. "لا تقدرون أن تقتلونا؛ لأنكم بحاجة إلينا".

"سترجعون إلى قراكم بعد أن ينتهي عملكم في مناجم الفحم؛ حيث باقي أفراد عائلاتكم في انتظاركم"، قال أحد العساكر.

شهر العساكر بنادقهم في وجه الشبان، فاضطُروا إلى حمل أشيائهم، وانطلقوا. بكت أمهاتهم، أما زوجاتهم وأخواتهم؛ فركضن خلفهم، لكن الأتراك ضربوهنّ بالسياط. سقطت النساء متألمات، وهنّ يبصرن الرجال يختفون في الأفق. قالت كوهار في نفسها: "لو كان بوغوص هنا، لساقوه إلى مصيره المجهول، لا بد أني سأراه ذات يوم".

أطلقت النساء الشتائم، وعات أصواتهنّ باللعنات على الدرك "ليمت أولادكم، وتُهدم بيوتكم، كما فعلتُم بنا".

رفع شيخ صوته سائلاً: "ماذا ستفعلون بنا؟ هل ستقتلوننا هنا؟" سخر منه الضباط، وقال أحدهم: "أنت لا تستحقّ ثمن رصاصة".

خافت كوهار لما سمعت عسكرياً يزعق في الجمع قائلاً: "هنا سنترككم فوق هذه التلة، وفي الصباح سيعثر عليكم البدو العرب، وينهشون لحومكم. سيأخذ الرجال غلمانكم، ويعملون فيهم الفحشاء، ونساؤكم ستصبح سبايا. أما أنتم الشيوخ؛ فستموتون في هذه الأرض الغريبة". بعد قليل، أمر الضابط عساكره بجمع أشيائهم "تأهّبوا للرحيل، لقد انتهت مهمّتنا". مشوا، وتركوا الجموع في القفر ناظرين إلى بعضهم البعض، ولم يعرفوا هل يفرحون؛ لأنهم كانوا أحراراً؟ أم يحزنون؛ لأنهم في القفر جوعى وعطاشاً؟ النساء جلسن يبكين أزواجهنّ وأولادهنّ.

ولما توارى العساكر عن الأنظار، تأكّد الجمع بأنهم في مأمن من شر هؤلاء الرجال، فراحوا يبحثون عن أكل؛ ليطعموه لأولادهم. قطفوا بعض الأزهار الشوكية، وارتشفوا رحيقها، ثم أكلوا أوراقها، مشوا باحثين عن بئر ماء دون جدوى. بعض الغلمان جابوا الوديان، وبين الصخور الكبيرة عثروا على أعشاش الطيور، أخذوا البيض، وأكلوه نيئاً. بات الجمع عطاشاً في الليل، وربطوا الصغار؛ كي لا يركضوا في الظلام، ويتيهوا؛ لأنه لم يكن هناك مراقب. في منتصف الليل، سمعوا أصوات بنات آوى قادمة مثل صراخ امرأة ثكلى، القمر بدا وكأنه يئنّ وهو يطلّ من عليائه؛ إذ أحاطت به بعض الغيوم المتفرّقة، سقط نجم مذنّب من السماء، وحينما رأته كوهار خافت، وتذكّرت بأنها وحدها. تمنّت لو كانت مع والدتها، ولم تقدر أن تنام، لملمت - بلا وعي - ما لها من متاع قليلة، ووضعتها في بقجة صغيرة، وابتعدت راكضة في حلكة الليل. لم يشعر بها أحد، وهي تبتعد، صرخت مع مطلع الفجر: "بوغوص ... بوغوص ... أين أنت، يا بوغوص؟".

ثم ارتمت على الأرض، وهي تهذي. ورأت حلماً أشبه بحكاية، كانت جدّتها تقصّها لها، وإذا بها عند بحيرة قرب مرج أخضر، فيه زهرة الدم الذهبية، الزهرة التي تستعير لونها من الشمس، فلا أحد يقدر أن يقطفها. في الوادي البعيد؛ إذ تنبت بين الصخور الوعرة في موسم الربيع. كل مَن يمر في الوادي يغوى بجمالها، المارون يمدّون أياديهم، لكنهم لا يقدرون أن يقطفوها؛ لأنهم ما إن يقتربوا منها، ويلمسوا طرفها حتى تنزف أطرافهم، وتتقطّع أوردتهم، وينتشر الدم في كل مكان، وهكذا تعدّ أجمل زهرة في الحقول؛ لأن لا أحد يقدر أن يطولها، هكذا كانت تروي لها الجدّة الحكايات، وتذكّرتها كوهار بين يقظة وبين هجعة. نامت، وحلمت كوهار بالجبال ومياه للشرب، ونامت حتى الفجر في العراء متّكئة رأسها على صرّتها الصغيرة التي تحتوي على فستانها الأحمر وعقد الذهب مع بعض الخرق البالية. في الصباح، أبصرت زرقة الأفق، وتخيّلت بأنها ترى مياه شرب، فشرعت تمشي دون أن تعرف أين هي.

أما الجموع التي تركتها كوهار خلفها؛ فبقوا يجولون متعبين في البرية، ناموا في إحدى الليالي، ولم يعرفوا إن كانوا قد ارتاحوا أم لا، في الفجر، استيقظوا على صوت حوافر الخيول، أعقبه صوت إطلاق رصاص، خافوا حينما اقترب منهم ستة خيالة، وكانوا من العرب. نزل الرجال عن ظهر أحصنتهم متعجّبين من منظر اللفيف؛ إذ كانت النسوة شبه عراة، أما الرجال والصغار؛ فكانت عظام وجوههم قد برزت، وثيابهم لم تكن سوى خرق مهلهلة، لفّوا بها أجسادهم النحيلة، فبدوا، وكأنهم أشباح. حلّ الخيالة أفراسهم، وأخرجوا قِرَب الماء، وسقوا الصغار أولاً، ثم النساء، "هل أنتم من الأرمن؟" سأل أحدهم.

ردّ الشّمّاس قائلاً: "نعم، نريد ماء وطعاماً؛ لأننا لم نأكل من شهور كثيرة". قال أحدهم.

"أين ستأخذوننا؟. ومن أنتم"؟ سأله الشّمّاس.

"نحن صيادو الطيور، وسنأخذكم معنا؛ لتعيشوا بيننا"، قال أحد الرجال.

"حسناً، لنمش، ونتبع هؤلاء"، قال الشّمّاس للرجال.

رفض التاجر وزوجته وبعض من أهالي القرية قائلين: "لن نذهب معكم نحن، وسنبقى ندور في الأرض حتى نعثر على قرية قريبة".

ووافقه رجل آخر "ماذا لو قتلنا هؤلاء العرب؟".

"لن يقتلونا، فليس معنا ما يمكن أن يطمعوا فيه"، قال الشّمّاس.

هَمّ الرجال العرب بالرحيل، وركبوا خيولهم، نادى بهم الشّمّاس قائلاً: "قفوا، سنأتي معكم نحن البقية".

قام بعض الأفراد، ومشوا متلهّفين خلف الرجال الغرباء آملين أن يُطعموهم شيئاً، ويستقروا في مأوى.

نادت هاسميك بالراحلين راكضة خلفهم: "يا أيها الطيبون، خذوني معكم، لم يبق لي أحد، أمي ماتت، وأنا الآن يتيمة، ومسلوبة الشرف".

"لا نريدك بيننا؛ لأنك وسخة، امرأة صلفة أنت"، قال أحد الرجال، ووافقته إحدى النساء قائلة: "أنت قد أحببت الغرباء أكثر منا، بل وبعتِ جسدك لهم مقابل لقمة واحدة".

"تعالي، يا ابنتي معنا" .... قال الشّمّاس للشابة التي مشت خلفهم، وهي خائفة من نظرات بعض النساء اللائمة.

بعد السفر ثلاثة أيام، توقّف الرجال في الطريق، واصطادوا بعض الطيور الصغيرة، ذبحوا بعضها، وأكلوها مع ضيوفهم، كلّ واحد فيهم أخذ لقمة صغيرة، ثم قاموا، وأكملوا المسير، مارّين بقرب نهر جميل، وعلى ضفّتيه حقول خضر، "ذلك هو نهر خابور"، قال رجل مشيراً إلى النهر. نزل الأرمن إلى النهر، وشربوا، واغتسلوا، ثم ساروا حوالي النصف يوم. من بعيد، نظروا

المدينة التي كانوا متوجّهين إليها، وتعجّبوا من جمال تلال المنطقة وأنهارها الصغيرة التي تجري تحت جسورها الخشبية.

قال لهم الصيادون حينما وصلوا إلى المدينة: "أهلاً بكم في رأس العين". ثم ضمّدوا جروح الأرمن، وأدخلوهم؛ ليغتسلوا، وأعطوهم بعض الملابس المتواضعة.

طبخت نساء القرية العدس والرز، وقدّموا لضيوفهم القليل؛ ليأكلوا في المرة الأولى، طلب الضيوف المزيد من الطعام، ولم يعطَ لهم، "سنعطيكم في الغد؛ لتأكلوا أكثر، قد سمعنا بأن بعض من المَنفيين مثلكم قد ماتوا؛ لأنهم أكلوا كثيراً بعد جوع طويل، اشربوا اللبن، فهو سيرويكم، ويقوّي عظامكم".

شعر الغرباء في رأس العين بالأمان بعد عناء أشهر، كان مؤذّن المسجد في تلك الأيام ينهي صلاته يوم الجمعة داعياً المؤمنين بفعل الخير، ويحثّهم على الجود مع ضيوفهم: "لقد أوصانا الرسول بالجار، إن الله ناظر إلى أعمالكم ونيّاتكم".

الفصل الثاني عشر
أركان

مشت كوهار أياماً وليال دون أن تلتقي إنساناً، انتفخ أخمصا قدميها بدمّل حتى سال القيح منها. عبرت صاعدة تلالاً وعرة، ومشت مثل دابّة على أربعة. احدى الليالي وضعت رأسها على الأرض، واستسلمت للموت، وفي اليوم التالي، عثر عليها عسكريّ، كان في طريقه إلى قريته، أشفق عليها، وسقاها، وحينما استطاعت أن تفتح عينيها، نظرت إليه، وصرخت "بوغوص" ...

"بوغوص؟ مَن هو بوغوص هذا؟".

لم تردّ عليه، أما هو؛ فعرف بأنها أرمنية حينما تمتمت ببعض الكلمات، ثم وضعها على دابّته، وبعد مسافة، رفعت كوهار رأسها، ورأى الرجل جمال وجهها رغم أنه كان متلبّداً بالتراب. سألها ما اسمك؟".

"كوهار" ...

"جوهر؟ جوهرة حلوة أنت، سآخذك عند أمي وجدّتي".

مشت بهم الفَرَس حتى المغيب، ثم توقّف، وأخرج الرجل رغيف خبز، غمسه في القليل من الماء الذي يحمله، وأعطاها، فأكلت، ثم قال لها: لنسترح هنا حتى الفجر، ليس حسناً أن يتحرّك المرء في الليل". ربط فرسه بشجيرة، وسأل كوهار "أنت عذراء؟".

"نعم" ...

"اخلعي ثيابك".

خلعت عنها ثيابها، ووقفت أمامه، وقبل أن يقبل الليل، نظر إليها، وتحسّسها شاعراً بجسدها طرياً بين يديه، مدّ الرجل يده إلى صدرها النابت، وشعر بحلمتيها الصغيرتين الورديتين اللتين قد برزتا قليلاً من البرد.

"كم أنت جميلة" ...

بسط على الأرض فراشه الخفيف، وأمر كوهار أن تقترب منه، أخذها بين ذراعيه، لكن كوهار منعته من أن يمسّها: تعالي هنا، ولا تخافي، لن أفعل شيئاً بكِ".

نامت هي بعيداً عنه، لكنها استيقظت بعد هجعة، وكان هو مستيقظاً، وقد بدأ يداعبها، ظنّت بأنها مع بوغوص، وشعرت برغبة عارمة أن تضطجع معه. أصبحت كوهار مفرشاً للرجل بعد أن دسّها تحته، بكت بمرارة بعد أن فرغ منها، وهي تسمع صوته في الظلام متيقّنة بأنها مع رجل غريب، وليس مع بوغوص، في الصباح حينما فتحت عينيها، تغلّبت على خوفها من الوحدة بحضور الرجل، وهكذا مشت خلفه أحياناً، وأحياناً أخرى، ركبت على فرسه؛ إذ شعر العسكريّ بجسدها يحتكّ بجسده، ولم يفسد له متعته تلك غير الرائحة النتنة الصادرة من شعرها الملبّد.

من بعيد، رصد الخيّال بئراً، اقترب منه، وشرب، سقى كوهار ودابّته، ثم اغتسل. أما كوهار؛ فبقيت واقفة بثيابها المبلّلة بعد أن اغتسلت، ولم تشأ أن ترتدي ما لديها في القفّة مخافة أن يرى الغريب سلسلة الذهب المخبّأة.

أما الأرمن الذين وصلوا مع صيادي الطيور إلى رأس العين؛ فقد استرجعوا صحتهم بعد أسابيع قليلة، وخرجوا إلى السوق للعمل، وجني المال، اشتروا الأقمشة، وصنعت النساء ثياباً، وبعد أشهر من سكنهم في الخيام، قرّروا البناء. ففي يوم، اجتمع الأرمن مع بعض الوجهاء في رأس العين، وقرّروا أن

يبنوا كنيسة "قبل أن نبني لأنفسنا بيوتاً، علينا أن نجمع المال، ونبني للربّ بيتاً، فيه نعبده"، قال الشّمّاس.

أحد الأغنياء من عرب رأس العين وعدهم أن يمنح لهم أرضاً بلا مقابل قائلاً: "أنتم أناس مسالمون، ونحن هنا؛ لنحميكم، كلّ مَن تعرّض لكم يتعرّض لنا، بيت صلاتكم، لا يختلف عن بيت عبادتنا، ابنوا، وإن احتجتُم شيئاً، فنحن هنا من أجل معونتكم، عندنا أنا وأولادي قطعة أرض مناسبة لكم، خذوها، وشيّدوا كنيسة لكم، ولن نطالبكم بثمنها".

وبعد أيام عديدة، سُمع في رأس العين بأن هاسميك الشابة قد تم خطبتها على شاب قادم من عينتاب، وفي يوم زواجها، طلبت منه أن يدور بها في البلدة بموكب احتفالي كبير نكاية بكل مَن شتمها من أهل قريتها حينما كانوا في البرية.

الفصل الثالث عشر
اليتيمان

مشى الصبيان هوسيب وكريكور جنوباً، ومرّا ببعض الأراضي الزراعية، فرأتهما فلاحة، ونادتهما من بعيد. حينما اقتربا منها، قالت: "مَن أنتما؟ ولماذا يبدو عليكما الشقاء بهذا الشكل؟".

"اسمي هوسيب، وهذا أخي كريكور"، قال الأخ الأكبر. "أين أهلكما؟".

لم يرد هوسيب ... قدّمت لهما المرأة فخّارة ماء "خذ، يا صغيري، اشرب، وأعطِ لأخيك أيضاً. شرب هوسيب، ثم قال لها، "نريد أكلاً".

بحثت المرأة في قفّتها عن شيء؛ لتعطي الصغيرين، فعثرت على قطعة جبنة، ناولتها لهوسيب الذي قضمها، وأعطى الباقي لأخيه. كان طعم الملح في فمهما لذيذاً، أعطتهما المرأة المزيد من الماء، وشربا. "لو كان عندي زوج، لأخذتكما معي إلى كوخي الصغير، لكنني أرملة فقيرة. خذوا هذه اليقطينة من حقلي الصغير، قطفتها اليوم". حمل هوسيب الثمرة، ثم مشيا مسافة. وعند المغرب، جلسا، وتشاطرا أكلها، ثم ناما في العراء. في الغداة، عبروا ودياناً جرداء وتلالاً قاحلة حتى لمحا في الأفق بعض الأكواخ الطينية المرتمية على تلّة. دخل الصبيان القرية الصغيرة، وقطفا من عناقيد العنب المتدلّي من أسيجتها. أكلا بشهية، ووضعا بعض العناقيد في جعبتهما، وظلا يجوبان الطرقات. بعض غلمان الحي طاردوهما؛ لأنهم خافوا منهما. وبعد حين وهما - بعد - يمشيان، وصلا أسفل القرية، لعلّهما يعثران على مأوى، تحت شجرة الدردار، ناما في طرف القرية، واستيقظا - بعدها - على صوت أعمى يستجدي، اقترب منه هوسيب، وسرق ما كان في يد الرجل من

مال، ركض وراءه الأعمى متخبّطاً، لكن هوسيب هرب بكل قوته، وأخوه يتبعه حتى وصلا إلى محطّة سفر، وهناك ركبا عربة، لا يعرفان وجهتها، جلس رجل أمامهما، وسألهما "أنتما مسافران إلى الموصل وحدكما؟".

لم يردّ عليه هوسيب؛ لأنه لم يفهم السؤال. نظر الرجل إلى ملابسهما الرثّة، وكانت رائحة البول تفوح منهما. أشفق الرجل عليهما، ورقّ قلبه، ففتح زوّادته، وأعطاهما كسرة خبز، بعد مسافة من السفر، نزل الرجل من العربة، وصعد رجل آخر، وجلس تجاههما. نظر إلى كريكور، وقال له "اجلس في حضني".

وضع الغريب الصغير كريكور في حضنه، ومسّد له شعره الأشعث، فيما كان سلطان النوم قد وقع في تلك اللحظة على أخيه. استغلّ الرجل غفوة الصبي، فمدّ يده واضعاً إياها بين فخذي كريكور، بينما أنفاسه تصعد وتنزل خلف أذن الصغير. فزع كريكور، وانفلت من يد الرجل، ورجع، وجلس بجانب أخيه. خاف هوسيب من نظرات المسافر، وما إن وقفت المركبة في خان للاستراحة، نزل الصغيران. زاغ كريكور، وتوارى في السوق، وبقي هوسيب يبحث عنه حتى عثر عليه في السوق بعد مشقّة، كان الوقت قد شارف على الغروب، والسوق شبه خال، أكلا قشور الخضراوات المرمية على الأرض، وناما خلف مخبز. في الفجر، وجدهما أحد العمّال، وطردهما، مشيا متعبين، لفت منظرهما رجلاً مارّاً بقربهما، وقال لهما: "أين أهلكما؟". لم يجيباه، فأمسك بهما، وقال: "أنتما لا تفهمان العربية". ودار الرجل بالصغيرين في السوق، لعلّ أبويهما يكونان في مكان ما باحثين عنهما، وحينما تأكد بأن لا أحد لهما، سقاهما بعضاً من اللبن الرائب، وتعجّب الرجل من منظرهما؛ إذ كانت عظام وجهيهما قد برزت، وعيونهما قد جحظت. عند الظهيرة، فكر الرجل "لآخذهما عندي، وأكسب بهما ثواباً عند الله". كشف الرجل عورة الصغيرين، فرأى بأنهما غير مختونين "لابد أنكما من عائلة نصرانية، ومع ذلك، في الأسبوع القادم ستختتنان مع ابني الأصغر".

الفصل الرابع عشر
الغرباء

الأرمن الذين رفضوا أن يتبعوا الشّمّاس والصيادين العرب إلى رأس العين بقوا يدورون في الأرض، وهم يتخبّطون في الأرض، وبعد أن أعياهم التيه، استراحوا ذات مساء في العراء، وعند منتصف الليل، سمع فتى شاب نهيقاً قادماً من بعيد، ثم رفع رأسه، فرأى ظلّ شيء يتحرّك، وقال: "لابد أنه حمار، وحيثما يوجد حمار يوجد إنسان". صدّقه مَن كان معه، وكان عددهم مائة وسبعة عشر، معظمهم من النساء والصغار، تبعوا الصوت في دجى الليل، ولم يجدوا أي أثر لبشر، فاقترح أحدهم "لننتظر حتى الفجر، لعلّنا نعثر على قرية، أو بئر". أخذوا بنصيحته، وفي الصباح، وبينما هم ماشون رصدهم من بعيد راع، صاح بهم منادياً، ووقفوا ينظرون إليه. لوّح لهم، وسألهم، بينما هو يركض نحوهم لاهثاً "هل أنتم تائهون؟" قال وهو قد خاف من منظرهم، "نحن أرمن مرحّلون عن ديارنا"، "تعالوا معي إلى قريتنا، عمّي شيخ القرية، وسيرحّب بكم، فهو حينما يتناول طعامه يترك بابه مفتوحاً، لعلّ رجلاً جائعاً يمرّ به؛ كي يطعمه".

هكذا مشوا مسافة ربع نهار، وكانت قعقعة مفاصلهم هي الصوت الوحيد الذي يُسمَع في صمت الصحراء، من بعيد، رآهم فتى، وأخبر أهالي القرية؛ لينظروا مَن هم هؤلاء الغرباء القادمون نحوهم. خرج الرجال والأطفال لمقابلة الوافدين إلى قريتهم. الصغار خافوا من منظر ضيوفهم، وركضوا بعيداً؛ ليخبروا باقي أهل القرية. سألهم رجل يحمل بيده فأساً "منذ متى، وأنتم في البرية؟ لم يفصحوا عما أرادوا أن يقولوه، فنسوا الكلام. وألسنتهم التصقت بسقوف أفواههم من العطش؛ إذ أرادوا أن يقولوا شيئاً، ولم يقدروا.

المضيفون أدخلوا الغرباء إلى بيوتهم، وقدّموا لهم، وشربوا، أيضاً هيّؤوا لهم الماء الساخن، وأعدّوا لهم الثياب النظيفة. رجال القرية حلقوا ذقون ضيوفهم من الرجال، أما النساء؛ فأخذن نظيراتهنّ والصغار إلى الحمّام، وساعدنهنّ في الاغتسال، وفرز القمل عن رؤوسهنّ. في المساء، تجمّع أهالي القرية، وقدّموا لضيوفهم بعض الفواكه، أكلوها بنهم، ثم قالوا لهم: "غداً سنطبخ لكم".

طلبوا المزيد من الماء، وأعطوهم بدله اللبن. وقف شيخ القرية أمامهم قائلاً: "أهلاً بكم في قريتنا، والرجال ردّوا عليه قائلين، "نريد أن تمنّ علينا بمأوى، نحن وأطفالنا سنزرع معكم"، قال لهم الرجل: "بيوتنا وقريتنا في خدمتكم، ستعيشون بيننا مثل إخوة لنا". أمر الرجل بذبح الذبائح لضيوفهم.

في اليوم التالي، قاموا بشيّ اللحم، وأعدّوا البرغل المشبع بالسمن، وأكل الأرمن، وشبعوا، وناموا هانئين شاكرين ربّهم على ما فعل معهم حتى تلك الساعة.

مرّت الأيام، وكانت الأرمنيات قد استرجعن صحتهنّ بعد أن أكلن الفاكهة، وشربن لبن الماعز، وطفا الجمال على وجوههنّ من جديد، ولم يقدر رجال القرية أن يقاوموه. رجل غنيّ اسمه آزاد مالك طواحين السمسم سلب لبّه جمال امرأة متزوّجة من شيخ هرم، وبقي يحوم حولها حتى عرفت زوجته بنيّته، وغارت، قالت لبقية النساء: "هل النسوة الغريبات جئنَ؛ ليأخذن أزواجنا منا"؟.

"لماذا تقولين هذا الكلام؟" سألتها إحدى النساء.

"لأن ذا الشعر الأحمر يريد أن يتزوج من امرأة ثانية؛ ليدسها تحت كرشه الكبير في الليل". قالت ساخرة، ثم فكّرت النسوة بطريقة لطرد القادمين مع نسائهم.

قال آزاد الرجل الغنيّ لرجال القرية: "لنأخذ أراملهم ونساءهم محظيّات لنا، ويصبحن حلالاً لنا".

"نعم، ليس حسناً أن تكون امرأة باهرة الجمال مُلك رجل واهن وضعيف". وافقه أحدهم قائلاً: "فتيانهم ضعفاء، ورجالهم هرمون، ليس فيهم قوة، نحن نستحق نسوة مثل أولئك، وهنّ يستحقوننا". وهكذا قرّر رجال القرية أن يأخذوا لأنفسهم الأرمنيات، كل رجل يأخذ مَن حليت في نفسه. وفي الصباح، ذهب آزاد إلى زوج المرأة التي أعجبته، وقال له "أعطني امرأتك"، خاف الرجل من آزاد، وتوسّل له "أرجوك، إن كان عندك زوجة، فلماذا تريد زوجتي؟ لو كان وجودنا يزعجكم، سنرحل عنكم غداً".

"لا أريد منك غير زوجتك".

"لقد قاسينا الكثير حتى وصلنا إلى هنا، نتوسّل إليكم، لا تفسدوا أعمالكم الصالحة التي قمتُم بها نحونا حتى الآن".

"تقدرون أن تعيشوا في وسطنا، ولكنْ؛" ... قال له آزاد.

"جودكم لن ننساه، فقط دعونا نرحل عن هنا بأمان".

"سنعطيكم مهلة حتى الصباح؛ لترضخوا لأمرنا، وإلا" ... هدّد الكردي.

لكن آزاد اجتمع برجال القرية في المساء، وقال لهم: "هؤلاء النسوة فاتنات، أين هنّ من نسائنا؟ وجوههنّ قد أصبحت مثل تفّاح الجبل، وضفائرهنّ كأنها خيوط من ذهب، لو تخلّصنا من الرجال، فستصبح النساء لنا، والصغار سيكونون نافعين في الزراعة". وافق الرجال آزاد صاحب طواحين السمسم، وتآمروا ضد الرجال، وجلسوا يخطّطون في طريقة، للتخلّص من الرجال.

تجمّعت زوجات رجال القرية، ودخلن على أزواجهنّ قائلات: "قد تغيّرتم منذ وطأ هؤلاء قريتنا، أتريدون حقاً أن تتزوجوا علينا، أو تهجروننا؛ لأن هؤلاء النسوة أجمل منا؟"، لكن الرجال دافعوا عن أنفسهم "طمعوا هم في أملاكنا وفي مالنا من مواشٍ وأراضٍ، لذلك سنأخذ أولادهم عبيداً لكم".

"أنتم تكذبون، تريدون أن تتخلّصوا من رجالهم، وتأخذوا نساءهم"، قالت

إحداهن، أما زوجة آزاد؛ فقالت لزوجها: "أتريد أن تجلب لي ضرّة بعد كل هذه السنين؟ مَن من الأرمنيات قد رشقتك بسهم حبّها؟ قل لي" ...

"لا تقلقي، لو أخذت زوجة أخرى، فلها ليلتان فقط، ولكِ أنتِ خمس ليال"، ردّ عليها زوجها، والنساء هزأن منه، وأطلقن ضحكات سخرية، قال آخر: "ارجعن إلى بيوتكنّ وأولادكنّ الآن، وسنتكلم معكنّ فيما بعد".

قبل أن يحلّ المغيب، تجمّع الرجال الأرمن في الخلاء، يخطّطون للهرب بعيداً، قال أحدهم: "ليس لدينا الوقت، علينا أن نتحرّك بسرعة".

"هناك قرية خلف الجبل؛ لنهرب إليها"، قال شابّ، وهو يؤشّر نحو الغرب، ثم أكمل "كنتُ هناك قبل يومين أتفقّد المكان"...

"لنجمع أولادنا والنساء، ونهرب". اقترح آخر. لكنْ؛ سرعان ما خيّم الظلام حينما تأهّبوا للهروب، وخافوا أن يتحرّكوا، فأرجؤوا هربهم لليوم التالي.

طلب رجال القرية في الغداة من ضيوفهم الذكور التجمّع في حقل وسط القرية، لكنهم رفضوا "اخرجوا، ولا تختبئوا مثل النساء". قالوا لهم، وهم يحيطون البيوت الحجرية التي كان الأرمن ينزلون فيها، ونادوهم "هلمّوا خارجاً، نريد أن نتكلّم معكم فقط، لا أكثر". خرج الرجال، ووقفوا في دائرة.

رفع رجل من القرية صوته قائلاً بعد أن لفّ عمامته: "لا تخافوا، لا نريد شيئاً منكم، ولن نؤذيكم، فقط نريد نساءكم، وسنترككم، تعيشون".

تكلّم رجل أرمني بلهجة غضب، لا تخلو من العتاب "لقد نجونا من قساوة العثمانيين، وكدنا نموت من الجوع والعطش، أنتم مَن أنقذنا، والآن تريدون أن تقتلونا، وتأخذوا نساءنا!!".

"لن نقتلكم، بل سنعطيكم أرضاً؛ لتزرعوها، وكل الغلّة التي تجمعونها ستكون لكم مقابل"...

"كلا، اقتلونا، فهذا أفضل من أن تصبح نساؤنا لكم".

وهكذا مثل الرجال الأرمن أمام أهل القرية من الذكور، لكنْ؛ في غرفة قصيّة ثمّة امرأة كانت حبلى في شهرها الأخير، رأت ما يحدث؛ حيث دفعوا بزوجها بعيداً، قالت: "ويحي، سوف أموت أنا وصغيري، علي أن أخلّص نفسي وطفلي". لملمت أشياءها بسرعة، وهربت صاعدة هضبة بعيداً عن مرأى الناس.

دفع الرجال ضيوفهم إلى نهاية القرية؛ حيث كهف "إلى أين تأخذوننا؟ اتركونا"، صرخ أحد الرجال، بينما هم يدافعون عن أنفسهم.

"لا تخافوا، سنتكلّم داخل الكهف مع طراوة الهواء سنقدر أن نتّفق"، قال أحدهم.

"نتّفق على ماذا؟"، سأل أحد الرجال بعصبية.

"ستعيشون حياة هانئة معنا هنا فقط، لو سمعتُم كلامنا"، أكّد رجل آخر من القرية.

دفع أهل القرية من الذكور بالرجال ضيوفهم إلى الكهف بعد جهد، وتمكّنوا منهم؛ إذ اقتادوهم بعد أن حاصروهم، ثم انهالت عليهم ضربات عنيفة بالعصيّ. تكسّرت عظام سيقانهم، وسقط الشيوخ واحداً تلو الآخر صارخين، جرّهم رجال القرية من أقدامهم، وألقوا بهم في البئر القديمة، من قلب الهاوية، صرخ الرجال، لكنْ؛ لم يسمعهم أحد. رفعوا قلوبهم إلى السماء من الجبّ، وصرخوا في حلكة الظلام "حتى متى بعد، يا ربّ، لا تخلص"؟ دحرج الرجال حجراً فوق البئر، النساء الكرديات كنّ واقفات خارج الكهف، والغضب يقدح من عيونهنّ. سألن رجالهنّ عن فعلتهم الشنيعة حينما خرجوا، لكن الرجال التزموا الصمت. لطمت النساء على خدودهنّ، وولولن "أنتم مجرمون ... لقد قتلتُم هؤلاء الرجال ممّن وثقوا بكم، دمهم علينا وعلى أولادنا، ويحكم أين ستهربون من غضب الله؟".

مشت المرأة الحبلى لساعات صاعدة أكمة حتى بدت عليها علامات

المخاض، لكنها بقيت تمشي حتى دخلت في مغارة، وهناك وهبت الحياة لمولودها. تنهّدت في وهدة القفر، وشعرت بحزن شديد، وهي تضع صغيرها، لكنها فرحت ما إن رأت وليدها يمدّ رأسه، ويبكي. نظّفت نفسها من الدم وبقايا الأغشية. شعرت بقوة غير طبيعية حينما رأت وجهه، احتضنته، ثم لفّته بخرقة، قصّتها من طرف ثوبها، وخرجت إلى العراء باحثة عن طعام. قطفت بعض الزهور، وأكلتها، وبعد قليل، سال الحليب من ثدييها، أرضعت الصغير، وشكرت الله، وهي تحمله بين ذراعيها، وفي قلبها فرح، لا تفسير له. انطلقت وهي تطلب من الله أن تلتقي شخصاً ما يرأف بها. استمرت في المشي ليومين حتى رأت بعض الخيام، وكانت للبدو، دخلت إليهم، وعاشت معهم حتى كبر صغيرها، ثم أخذوها إلى بلاد الشام؛ حيث الأمن.

أما نساء القرية الكرديات؛ فساعدن نظيراتهنّ الأرمنيات على الفرار عند منتصف الليل "اهربن من هنا أنتن وأولادكن؛ لئلا يأخذكم رجالنا سبايا وخدماً عندهم". عند بزوغ الفجر، أخذت الأرمنيات صغارهنّ، وخرجن مسرعات، ووقفن فوق تلة بعيداً عن القرية. قلن لبعضهن البعض "لنذهب إلى ما وراء ذاك الجبل". مشت النساء مسافة ومعهن الصغار حتى رآهنّ بعض الرعاة من بطن واد، فهُرعوا نحوهنّ، وقدّموا لهنّ الماء. أخذوهنّ إلى قريتهم؛ إذ عبروا بعض الآكام، وقطفوا التين البرّيّ في أثناء مسيرتهم. حينما وصلوا، خرج شيخ القرية لاستقبالهم هو وزوجته؛ إذ كانا يرتديان ثياباً ناصعة البياض. تكلّم الشيخ سائلاً النسوة حائراً: "ماذا حدث لكنّ؟"، قال دون أن تتحرّك لحيته البيضاء. تقدّم صبي، ورفع رأسه، وقال: "لقد نجونا من أيدي الرجال هناك في تلك القرية خلف الجبل ذاك، قتلوا آباءنا وأقرباءنا. لتلك الكائنات أسنان تشبه أسنان الخيول، وفي الليل يتحولون إلى وحوش، لقد أجبرونا أن نرعى مواشيهم، ونحرث أرضهم، ثم اتّهمونا أننا نسرق حليب الماعز، ونشربه، رموا بآبائنا وأعمامنا في البئر، وقتلوهم، وأرادوا أن يأخذوننا خدماً لهم".

"لا تخف، يا صغيري، عندنا ستكونان في أمان"، قالت زوجة الشيخ.

"سكان تلك القرية قساة؛ لأنهم يملكون المال، سنحميكنّ، أنتنّ وصغاركنّ"، قال الشيخ بهدوء.

قالت له امرأة: "نحن من الأرمن، وكدنا أن نموت في طريقنا من بلادنا، والآن ها نحن نتعرّض للموت ثانية، فأين نهرب"؟.

تحنّن الرجل على النساء والصغار أمامه، وقال: "لقد سمعنا بنبأ محنتكم، لقد وصل قبلكم إلى هنا بعض من الأرمن هاربين من بطش العثمانيين".

سألت النساء عن المكان الذي هم فيه، فقال الشيخ: "أنتم في سنجار وسط شعب الإيزيدية، وستكونون في أمان بيننا هنا، حقولنا هذه كلها قدامكم، اقطفوا، وكلوا ما تشاؤون".

الفصل الخامس عشر
ماردين

بعد أيام، وصل العسكري، وبصحبته كوهار إلى قرية صغيرة، تقع في سفح جبل قرى ماردين. فرحت كوهار حينما سمعت صياح الديك فجراً؛ إذ كانت في حالة من التعب ظانّة بأنها وصلت إلى قريتها، لكنها سرعان ما عرفت بأنها عند أُناس غرباء حينما دخلت بيتاً مظلماً، بسقوف واطئة. ووقف أمام امرأة، بعيون مجعّدة الجفون، سألت المرأة ابنها: "مَن هذه؟" وهي تستعدل بغضب منديل رأسها المبرقش.

"جوهر، كنّتك، يا أمي"...

بعد أن عرفت بأنها أرمنية، قالت الأم: "ويحك، يا بني، لقد جلبت لنا زوجة نصرانية"!

ضربت المرأة على وجهها، واستيقظت الجدّة على صوت ابنتها "ماذا جرى؟" "تعالي، وانظري حفيدك جلب لنا كنّة نصرانية"!

"وما المشكلة؟ أهلاً حبيبي أركان". سلّمت العجوز على حفيدها، وخافت كوهار من منظر المرأة ذات الشعر الأحمر والحاجين الموشومين بالأزرق " لا تولولي، يا نرجس، دعيني أرى مَن هي هذه البنت، أوه، إنها حافية مثل القرج، أدخلها إلى الحمّام، ودعها تغتسل"...

"إنها عطشى، يا أماه"، قال الرجل.

أخذ أركان عروسه إلى المطبخ، وسقاها بعض اللبن، فارتوت، لكنها

خافت من صوت العجوز المتصدّي، وهو يتبعها، وهي تتفوّه بكلمات غير مفهومة.

في الحمّام،اختلطت دموع كوهار مع الماء، وأطالت غسيلها؛ لتتفادى هؤلاء الغرباء الذين دخلت بيتهم "عليّ أن أعثر على طريقة، أهرب بها من هنا"، قالت في نفسها، "حالما تخفّ آلام قدميّ، سأهرب من عند هذا الرجل الغريب". غسلت برفق تقرّحات الدمل في أسفل قدميها، ودلّكت عقبهما، "أقدر أن أنسى آلام قدميّ، لكني لا أقدر نسيان آلام قلبي. آه، يا أمي، أين أنت؟ أين أنتما، يا إخوتي. بوغوص ... أين أنت، يا حبيبي؟".

حينما خرجت من الحمّام، كان أركان ينتظرها عند الباب، وبيده غلالة نوم "خذي، البسي هذه الثياب، قال لها، ثم أضاف: "إياك أن تفكّري في الهروب، سيعثر عليك أهل قريتي، ثم ترجعين إلي".

لم تقل كوهار شيئاً، لكنها خافت منه خوفاً عظيماً حينما أدخلها إلى مخدعه، وأعطاها قطعة خبز وتفّاحة صيف صغيرة، فأكلت، ثم غفت، وهي مستلقية في زاوية غرفته، بينما اضطجع أركان على سريره. تسلّل بعد ساعات؛ حيث كانت كوهار نائمة، وقربها كانت كوهار قد وضعت كل ما تملك: صرّتها الصغيرة. فتح أركان البقجة، وعثر على سلسلة الذهب المخبّأة بين طيّات خرقها، أخذها، ووضعها في جيبه، ثم خرج.

حينما استيقظت كوهار عند الغسق، شعرت وكأن شيئاً يكاد ينطبق على صدرها، فخرجت إلى الخلاء؛ لتقضي حاجتها، وحينما رجعت كانت الجدّة واقفة تنظر إلى جسد كوهار الهزيل، قالت لابنتها الجالسة في زاوية الغرفة "يا سبحان الله، جمالها مثل جوهرة تماماً مثل اسمها، ستنجب لحفيدي أطفالاً أقوياء".

لعنتها كوهار في قلبها؛ لتصدّ كل ضربة حسد موجّهة إليها "اذهبي عني، أيتها العجوز الملعونة، ليضربك حسدك، ويرجع إلى قلبك الدنيء".

"تعالي هنا، وخذي هذه البيضة المسلوقة وحبّات الزيتون هذه"، قالت العجوز لكوهار. أخذتها كوهار من يد المرأة، وأكلتها بشراهة، ثم توارت.

"لا تدلّليها، يا أماه؛ لئلا تحتقرنا"، قالت نرجس والدة أركان.

تذكّرت كوهار عقد الذهب في الصرّة، دخلت الغرفة، وفكّت البقجة، ولم تجد السلسلة، بكت، وهي تعرف بأن أركان قد سرقها.

حينما رجع، قالت له: "أنت أخذت مني السلسلة الذهب، أعدها إلي الآن، إنها تعويذتي، تركتها لي أمي قبل أن تموت".

"لن أرجعها لك، فهي ثمن إنقاذي لك، لولاي لكنت حتى الآن تدورين في البرية بعيداً عن أي مخلوق".

خافت كوهار من الرجل، وجلست تبكي بصمت.

في الليل، أوصد أركان باب الغرفة وراءهما، وأطفأ الفانوس. حزنت كوهار حينما اقترب منها الرجل مفكرة ببوغوص. جاء صوت العجوز من خلف الباب، وأنشدت أغنية حبّ باللغة التركية:

"أواه دلي آمان،

لقد اجتاحت محبتك قلبي آمان آمان،

دلي آمان،

لقد هبّت الريح مثل النار،

أواه، يا دلي،

الريح قد أتت، وهي ههنا مثل الطوفان،

آمان آمان،

دلي آمان،

وأنا أتوق لمَن تحبّه نفسي،

آمان آمان" ...

اخترق صوت العجوز نفس كوهار، بينما الرجل جاثم فوق جسدها، دفعته عنها؛ إذ كرهت رائحته التي ذكّرتها برائحة اللبن العفن، أما هو؛ فلم يتركها حتى فرغ منها.

في الصباح، جاء صوت نرجس والدة أركان "تعالي، أيتها الصبية، إليك بهذا الدلو، وانزلي إلى الماء، ولا تنسي أن تسقي الفرس خارجاً، وخذي حزمة من البرسيم، وأطعمي الدابّة". خرجت كوهار مكسورة، وما تزال تعبة من الرحلة، تبعها صوت العجوز الجدّة قادماً من ركن الغرفة، " لابد أنك عاشقة أنت أيضاً، أيتها الأرمنية الجميلة" ... ثم علا صوتها ضاحكة، بينما كوهار تلعنها، وهي تسأل نفسها "متى ستسنح لي الفرصة؛ كي أهرب من هذه الوجوه؟".

قبل أن يلتحق أركان بثكنته العسكرية، أوصى والدته أن تراقب كوهار، وأن لا تسمح لها بالخروج "لا تدعيها تبرح عن نظرك. خذي هذا العقد هدية مني، ومن جوهر لك". أخذت المرأة السلسلة، وخبّأتها تحت وسادتها.

الفصل السادس عشر
الشيخ غازي

نادى الشيخ غازي زوجته: "تعالي، يا أمينة، انظري إلى هذين الصبيين، سيكونان من الآن فصاعداً مثل أولادنا" . جاءت المرأة، ووقفت أمام الصغيرين الهزيلين، وكان الذعر في أعينهما. وضعت يدها على خصرها، وهي تسمع زوجها يقول: "سيكونان إخوة لأولادك، إن أكلنا البقوليات، فهما - أيضاً - يأكلان ذلك، وإن أكلنا اللحم والرز واللبن، فإنهما سيأكلان معنا اللحم والرز واللبن، على أن لا يقل ما في صحنيهما عمّا في صحون الأولاد والبنات، أتفهمين؟".

هزّت المرأة راسها، وراحت تتفحّص ملابس الصغيرين الرثّة، ثم طلبت منهما أن يتبعانها، أدخلتهما الحمّام، وخلعت ثيابهما. طلبت أمينة من إحدى بناتها أن تجلب ملابس نظيفة من ثياب الصبيان. غسلت المرأة الصبيين جيداً، ومشطت شعرهما، وقصّته. أعطت بناتها ملابس الصغيرين قائلة: "خذوا هذه الخرق، وأطعموها للنيران تحت القدور".

حينما وقف الصغيران أمام الشيخ، ابتسم، وقال لزوجته "لقد فعلت حسناً بولدينا الجديدين، خذيهما، وأطعميهما شيئاً".

كان هوسيب قد خبّأ صليب والدته في فمه، وحينما عرفت به ربّة البيت، قالت له: "ماذا تخبّئ في فمك؟" "ارتبك الصغير، ثم فتحت المرأة ثغره عنوة، وأخذت منه قطعة الذهب، "سأخبّئه حتى يوم زواجك". ثم أضافت بعد أن تمعّنت في الصليب: لابد أنه كان لأمك".

بكى هوسيب، وسقط على الأرض، قالت له المرأة: "لا تبك، يا ابني، كلنا يتامى، قم، وكل؛ كي تتحسّن صحّتك"...

جلسا يأكلان، بينما المرأة تراقبهما، وهي تفكر كيف ستهتمّ بهؤلاء الصغار الثمانية. في المساء، سألها ابنها محمود "يقول الجيران بأن لدينا - الآن - خادمين في البيت". "كلا، يا ابني، بل هما أخان لكم. ستلعب معهما أنت وإخوانك"، قالت الأم. ثم سألها عن اسميهما، أجابت "لا أعرف، أبوك يعرف". وضحك عليها أبناؤها، اقترح محمود ابنها "ما رأيك أن نسمّيهما يوسف وكريم؟". وراقت الفكرة للمرأة، أما الشيخ غازي؛ فنهر ابنه، وحذّر أهل بيته من تغيير أسماء الصغيرين".

بعد أيام قليلة، استعاد الصبي هوسيب قوته، وقالت له الأم أمينة "قم، وساعد إخوتك في جلب الحطب من القرية المجاورة". ركض هوسيب إلى البرية، ولحق بإخوته، عبد الله ومحمود وباهر، أما كريكور؛ فبقي جالساً في المطبخ مع الصبايا والنساء، ولم يكن ينطق بكلمة، رمقته المرأة بنظرة تحنّن، ثم قالت: "كان المفترض أن يكون هذا الصبي بنتاً".

بعد شهرين، وحينما حل موسم الخريف. وصل رسول قادماً من الموصل إلى بيت الشيخ غازي عند الظهيرة، ووقف خارجاً، سألوه، وهو ممتطٍ دابّته "مَن أنت؟ وماذا تريد؟"

"لقد قدمت من الموصل، بعثني سيدي هاكوب ميناسيان". "أليس هذا الصائغ المعروف هناك؟"

"نعم، هو بعينه، سيدي هاكوب، وهو من أعيان المدينة. لديّ رسالة منه، تخصّ أمر الصغيرين، وما صار إليه أمرهما. سيدي هاكوب أسّس ملجأ لأيتام الأرمن القادمين من تركيا" ... قال الرسول، وهو يناول الشيخ غازي المكتوب.

أخذ الشيخ الرسالة، وأشار بيده للرسول أن يترجّل، نزل الضيف، وقال له الشيخ مُرحّباً به: "أهلاً بك، ادخل، واجلس في الديوان"...

خلع الرجل نعليه، وجلس، ثم دخلت إحدى الصبيات حاملة قارورة ماء، وأعطت الرجل، فشرب.

"هل لي أن أراهما؟"، قال الرسول للشيخ. "الولدان يلعبان مع إخوتهما خارجاً".

"أخوتهما؟" هل ضممتهما إلى عائلتك الكريمة؟ "سأل الرجل بلهجة ساخرة. "كلا، إني أربّيهما تربية نصرانية، ولن ينشأا إلا على دين عيسى"، قال الشيخ غازي مدافعاً عن نفسه.

لم يكن الشيخ غازي يحسن القراءة، فتح المكتوب، وأعطاه لابنه البكر عبد الله الذي قرأ "لقد سمعتُ بأنك آويت مشكوراً صبيين من أولادنا الأرمن، ابعثهما مع رسولي الذي سيدفع لك المبلغ الذي أنفقته حتى الآن عليهما، نحن نقدّر كرمك الشامل، لكنْ؛ عندنا ملجأ ليتامى الأرمن، وسنربّي الصغيرين تربية أرمنية مسيحية هنا في الموصل"... وقبل أن يكمل ابنه قراءة المكتوب، نهض الشيخ غازي بغضب، أخذ الرسالة من يد ابنه، وغادر الديوان إلى المطبخ، مزّق المكتوب، ورماه في الرماد تحت قدور الأكل، ثم رجع، وقال لضيفه: "اذهب، وقل لسيدك بأني سأربّي الولدين على دين عيسى، لكني لن أتخلّى عنهما، مرة في الشهر، آخذهما بنفسي إلى الكنيسة عندكم في الموصل، لديّ ثلاثة صبيان من صلبي وثلاث فتيات، وهذان الاثنان قد بعثهما الله لي، نعمة هما من العلي القدير، سيبقيان هنا حتى أتأكد بأن ليس عليهما أيّ خطر. لقد تعرّضا للكثير من المصاعب، الصغير لم نسمع صوته حتى الآن، أخذناه إلى الحكيم، وقال لنا بأنه مصدوم، وذات يوم سيتكلّم دون عناء، والكبير هوسيب سيكبر، ويكمل تعليمه، ويعمل، سأوفّر لهما ما يحتاجانه من ملاذ حتى يكبرا، ويتزوّجا".

همّ الرجل بالرحيل دون أن يقول شيئاً، "إن شئت، امكث الليلة، زوجتي والبنات يعددن الأكل، سافر غداً صباحاً؛ كي لا تصل متأخّراً إلى الموصل"، قال الشيخ غازي للرجل. لكن الزائر ارتدى عباءته قائلاً بجفاء: "الموصل غير بعيدة".

في تلك الفترة، كان بوغوص يجوب القفار لشهور طويلة، لا يأكل فيها شيئاً إلا أوراق الأشجار، شرب في غمرة حرمانه حليب الحمير، وبقي يمشي أياماً حتى عثر على قافلة صغيرة، وكانت للأرمن الهاربين من بطش العثمانيين. سألهم إلى أين هم متّجهون؟ قالوا له "نحن ذاهبون إلى الموصل". صعد معهم، وأعطوه؛ ليشرب، نام لمدة يومين في عربة أحد الرجال، وسأل الذين كانوا معه إن كانوا يعرفون شيئاً عن أرمن القرى المهجّرين من منطقة ديار بكر، "أنا من طورباراز؟ هل تعرفون شيئاً عن مصير قافلة قريتنا؟". أجابوا بالنفي، لكن امرأة مسنّة روت له بأنها قد سمعت بأن هناك أربع عشرة عذراء من ديار بكر قد فضّلن أن يرمين أنفسهنّ من سفح جبلٍ عالٍ، على أن تنتهك أعراضهنّ من قِبل عساكر العصملي، انحصرن بين الرجال وبين مرتفع جبل"، قالت العجوز، وهي تروي له: "إحدهن حرّضت الباقيات على عدم الاستسلام والرضوخ، صرخت العذراء بأعلى صوتها - لنمت على أن يمسنا هؤلاء - شبكن أياديهنّ؛ ليتشجّعن، وعلت أصواتهنّ. حاول العساكر أن يمنعوهنّ، لكن تلك التي قادتهنّ في عصيانهنّ ضد العسكر شهرت مدية بوجه أحدهم حينما حاول أن يمنعهنّ من القفز. خاف، وقال للرجال: اتركوهنّ يمتن. وقف الرجال، وهم ينظرون النساء يقتربن من الحافة، لكن أحدهم صاح بهنّ، وهو يتذكّر أخواته وبناته وأمه: اعدلن، يا نساء، عن عملكن، وارجعن، فنحن لن نمسّ ولا شعرة من رؤوسكنّ. لكن أحد زملائه قال له: اخرس، دعهنّ يمتن. صرخت إحداهن: إن لم تتلقّفنا يد مريم على الأرض، فستحملنا ذراعاها في السماء، قفزن كلهنّ في الوقت نفسه، ارتطمت رؤوسن بالصخور الكبيرة المنحدرة، أما الأتراك؛ فذهبوا وأخبروا رجالاً آخرين، وحذّروهم من أرمنيات ديار بكر.

لقد سمّي ذلك الوادي بوادي العذارى، هذا ما سمعناه فقط". كتم بوغوص حسرته، وقال في نفسه: "ماذا لو كانت كوهار واحدة من تلك العذارى؟" ثم سأل المرأة التي روت له الحادثة إن كانت تعرف أسماء النسوة.

"كلا، يا بني، لقد ذهبن دون أن نعرف أسماءهنّ؛ كي نتغنّى بها،

ونتذكرهنّ، نساء ديار بكر القويات أرعبن قلوب الأتراك، هذا كل ما نعرف"...

"وماذا تعرفين أكثر عمن رُحِّلوا من منطقتنا؟".

"لم نسمع شيئاً غير أن الكثير من أرمن عينتاب وديار بكر قد وصلوا إلى بلاد الشام، ويقال بأن الكثيرين قد ماتوا في الصحراء".

"لماذا أنتم ذاهبون إلى الموصل"؟ سأل بوغوص.

"يقال إنها مدينة خير". قالت المرأة والرجال الذين في العربة.

"حالما أصل إلى الموصل، سأبحث عن كوهار ووالدتها وأخويها، وإن لم أعثر عليهم هناك، سأذهب إلى دير الزور". قال بوغوص للمرأة.

"لا تذهب إلى دير الزور، كثيرون قد ماتوا هناك، يابني".

الفصل السابع عشر
الموصل

في إحدى المرات، رجع الشيخ غازي متعباً في الليل من عمله، وكان هوسيب في باحة البيت جالساً، وبدا الحزن على وجهه، نظر إليه الشيخ غازي، وسأله "ما بك؟" "لا شيء، يا أبي".

"تعشّيت؟"

"نعم".

"ماذا أكلت، ياولد؟".

"أكلتُ خبزاً". قال الصبي.

"خبزاً فقط؟".

"كلا، خبزاً محمّصاً".

ضحك الشيخ غازي، وقال للصبي: "اذهب إلى فراشك، يا عزيزي، وفي الصباح سنفطر كلنا معاً خبزاً محمّصاً، وبيضاً مقلياً بالسمنة".

كان اليوم التالي يوم جمعة، وبعد الإفطار، بعث الشيخ غازي أولاده إلى المسجد، ثم قام باصطحاب هوسيب وكريكور إلى كنيسة الأرمن الواقعة في حي الشعارين في الموصل، سأرجع إليكما بعد الظهر، لا تتركا الكنيسة لأيّ سبب، ولا تذهبا مع أيّ غريب". وبعد أن تأكّد من سلامتهما في الكنيسة، ذهب الشيخ غازي إلى مرقد النبي يونس؛ ليرتاح. جلس هناك منتظراً،

ولهدوء المكان، غفا، ثم استيقظ فجأة على صوت بعض الرجال المصلّين. نهض، وطاف حول الضريح، فلاحظ رجلاً فقيراً متّكئاً على عصاه، وفي فمه قطعة لبان، يلوكها بأسنانه الأمامية، بعد قليل، ألزق الرجل علكته بأسفل عكازه، ومدّها إلى صندوق الصدقات مستهدفاً فئة الخمس روبيات، ثم أزاحها برفق، وطواها، ووضعها في جيب قميصه. خرج مسرعاً متّكئاً على عكازه، والشيخ غازي يهزّ برأسه، ويضرب كفّاً بكفّ مكلّماً نفسه: "هذا الرجل يسرق الله في بيت الله، لو طلب مني؛ لأعطيته أكثر مما سرق". ثم قام، وذهب إلى الكنيسة. في طريق الرجعة، سأل الرجل هوسيب عمّا تعلّم "علّمونا اليوم كيف نصلّي بعض الدعوات للقدّيسة مريم. أيضاً تمرّسنا على الكتابة وقراءة بعض النصوص". جيد، يا ابني، وأنت ماذا تعلمت؟"، سأل الرجل الصغير كريكور، لعلّه يتكلم. لم يردّ عليه الصبي. أمسك الرجل بيده، وقال: "ذات يوم ستتعلّم من جديد كيف تتكلّم"...

هكذا كان الشيخ غازي يأخذ اليتيمين إلى الكنيسة في الموصل أيام الجُمع، وحينما بدا الطقس ملائماً كان يذهب عند نهر دجلة، ويجلس عند الشاطئ. يراقب الصيادين، ثم يشتري بعض الأسماك، ويأخذها إلى زوجته، فتنظّفها، وتشويها.

الفصل الثامن عشر
مصير العساكر

العساكر الأكراد والضباط الأتراك الذين كانوا في طريقهم راجعين إلى ديار بكر استراحوا في إحدى القرى لأيام قليلة. مركز الشرطة هناك، دعا الضباط ضيوفهم، وقيل لهم: "لقد جاء أمر من المسؤولين في تركيا الفتاة أن يتخلّصوا من الأكراد، اقتلوا العساكر الأكراد الذين معكم".

في الليل، ولما كان الدرك الأكراد نياماً في أحد الأكواخ، أطلق الضباط الرصاص من بنادقهم من خلف باب خشبي، وقتلوا الجندرمة الأكراد، وجرّوا الجثث خارجاً. قبل أن يدفنوها، أفرغوا جيوبهم من ساعات كانوا قد سرقوها من الأرمن مع قطع الذهب والفضة. في مكانٍ ناءٍ، دفنوا الجثث بعيداً عن القرية، ثم أكملوا طريقهم إلى ديار بكر. وبعد أسابيع من السفر، رصدهم رجال ممتاز آغا الذي كان هو نفسه مختبئاً مع بعض من رجاله خشية أن يقتله الأتراك، ما إن عبر الضباط وادياً ضيقاً حتى جاءتهم الرصاصات من الخلف، سقط ضابطان في الحال عن حصانيهما، وباقي الضباط قد أصبيوا - أيضاً - ساقطين عن خيولهم، اقترب منهم رجال الزعيم الكردي، وقتلوهم واحداً تلو الآخر طعناً في الصدر، أفرغوا ما في جيوب ضحاياهم، وإذا بداخلها أكياس من ليرات الذهب، "هذه للأرمن". قال ممتاز آغا، "لن نأكل من هذا المال، بل سنقدمه لأول أرمني نجده".

كان ممتاز آغا نفسه قد أصيب بجروح بليغة، أخذه رجاله عند الحكيم، وتداوى هناك، ولما استرجع صحته، هرب جنوباً مع رجاله وعائلته؛ إذ كان مطلوباً من قِبل والي ديار بكر.

سكن الآغا بلدة عامودا، هو وكل مَن رحل معه باقي عمره. يقال بأن الكثيرين من أرمن وسريان عامودا قد حضروا تشييعه؛ لأنه كان صديق النصارى؛ إذ كان قد وهب المال الذي عثر عليه لهم، واشتروا بالليرات مزارع قطن.

الفصل التاسع عشر
ابنة كوهار، مريم

بعد أشهر من وجود كوهار في بيت الرجل الكردي المسمّى أركان، حبلت، ووقعت طريحة الفراش. لم تترك سريرها لأيام طويلة، شعرت كوهار بأنها ستنجب بنتاً، تحمل الأحزان مثلها. عرف أركان بأن كوهار حبلى، فقال لوالدته الخبر: "إن رُزقت زوجتك ولداً، سأسمّيه محمّد، على اسم جدّه".

"كما تشائين، لكنْ؛ لو رُزقت جوهر بنتاً، سأسمّيها أنا"، قال أركان.

"أريد أن يكون بكرها ولداً"، قالت والدته.

"أنا أيضاً، يا أماه"، ردّ أركان.

تذكّرت كوهار حنين والدتها. وسهرها على جانبها في صغرها حينما مرضت مرة. أعدّت والدتها كمّادات باردة من فخّارة ماء الشرب. بكت كوهار، وهي تتذكّر كل ذلك "آه، يا أمي، أين أنت؟ كيف حبلتِ بي بشقاء، وتحمّلتِ كل هذا الألم؟ لو عثرتُ عليك، سأكون أنا أمك، وأنتِ ابنتي، سأحمل عنك كل أحزانك، وأعتني بك، كما اعتنيتِ بنا نحن الثلاثة.

ذات نهار، تمشّت كوهار في الحديقة، على الجانب الآخر من السور؛ حيث كانت بنت الجيران تراقب كوهار، رفعت رأسها، وسألت جارتها: "ما اسمك؟".

"اسمي كوهار؛ لكنْ، هنا ينادوني جوهر". "لقد سمعنا بأنك أرمنية".

"نعم ... أرمنية من قرية طوراباز بقرب ديار بكر".

"أهلاً، اسمي سلطانة، تعالي، واشربي الشاي عندنا".

"لا أقدر أن أخرج من البيت، والدة أركان لا تسمح لي بالخروج، أنا حبلى".

"تعالي؛ لنغزل ونحيك معاً بعض الملابس لمولودك".

"يا لك من طيبة، أنا سعيدة؛ لأني تعرفت بك"...

"وأنا أيضاً"... قالت سلطانة، ثم طلبت من جارتها قائلة: "اقتربي، واكشفي لي عن وجهك" من خلف السور، رفعت كوهار الخمار الذي على وجهها، ونظرت سلطانة متعجّبة من سيماء جارتها الجميل. قالت لها: "شعرك الأشقر يُفرح القلب، كما خيوط الشمس في يوم قارس". ثم أضافت: "سبحان الله، أنت أجمل امرأة في كل ماردين وما حولها. لا تحتاجين أن تنظري إلى القمر؛ كي يغدو مولودك حسن الوجه، سيرث جمال وجهك المطهم"... قالت المرأة بتعجب.

"العمّة نرجس تناديني الآن، نتكلّم لاحقاً" قالت كوهار، ثم أردفت "تعالي غداً، واشربي الشاي عندنا". بعدها اختفت كوهار خلف أشجار التين، وولجت البيت، وهي تفكّر بالجارة "هذه المرأة تقدر مساعدتي في الخروج من هذا السجن". في اليوم التالي، جاءت سلطانة لزيارتها، وهي محمّلة بفطائر قد صنعتها بنفسها، أعدّت كوهار الشاي، وجلست النسوة يحتسين الشاي، ويأكلن "كلي هذا الصنف المعمول بالجبنة"... قالت الجارة لكوهار. نرجس احتلّت كل الكلام الذي دار في الجلسة. كلما سألت سلطانة سؤالاً، ردّت عليها المرأة بحجّة أن كوهار لا تجيد الكردية جيداً. قبل أن ترجع إلى بيتها، قالت سلطانة للعجوزين "دعوا جوهر تذهب معي إلى الحمّام في الشتاء". ردّت عليها نرجس قائلة: "بعد أن تُنجب، إن شاء الله".

بعد أشهر، أنجبت كوهار بنتاً، وكان أركان حاضراً، حمل الصغيرة، ورفعها في الهواء قائلاً: "سأسمّيك مريم؛ لأن والدتك كانت مسيحية قبل أن تُنجبك". أخذتها جدّتها، وفرحت بها "تعالي لأنظّفكِ"...

العجوز جدّة أركان جلبت بعضاً من فتات الخبز وكأس ماء، ووضعتها في الغرفة لطرد الأرواح الشريرة "لأربعين يوماً وأربعين ليلة لن تخرجي من البيت"، قالت العجوز لكوهار التي بكت، وهي تفكّر بوالدتها، وتقول "كم أنا بحاجة إليك، يا أمي، أين أنت الآن؟". هكذا مرّت الأيام وكوهار تعتني بابنتها، وترضعها. كلما وضعت صغيرتها لتنام، شدت كوهار بصوت خافت بالأرمنية:

"اهجعي في مهدك، ولا تبكي،

نامي، يا صغيرتي،

الطيور العمياء تحلّق فوق أرضنا، وتعبر،

الرياح تبكي في الغابات الموحشة،

تنوح للأجسادِ التي فتكت بها الكلاب المسعورة،

القافلة تمرّ، وتحمل معها كل شجوننا،

نامي، يا صغيرتي، ولا تبكي،

دعي النوم يخطفك مني إلى حين،

الوسن يداعب عينيك، ريح الجنوب بيتكِ،

أما الشجرة؛ فهي مهدكِ،

نامي، يا صغيرتي؛ لأنك غداً ستكبرين،

وسأشتري لك فستاناً بلون قوس قزح".

حينما ذابت الثلوج في ماردين وما حولها، صعدت كوهار مع سلطانة إلى السوق. شعرت لأول مرة بحرية كونها تخرج من دون صحبة والدة زوجها. مشت المرأتان في شوارع ماردين وأزقّتها الضيقة، ثم دخلتا الحمّام، واغتسلتا.

انساب شعر كوهار على ظهرها مبلّلاً، وهي جالسة، وراحت سلطانة تمشّط لها شعرها قائلة: "قربان جمالك المخبّأ هذا". شعرت كوهار بحنين جارتها بعد سنوات قحط وجداني. "لقد انقضى الشتاء، وأخذ قساوته معه، لو تعلمين كم عانيتُ، وأنا أحمل وعاء الماء من أسفل القرية عند النبع، بينما البرد يلفحني. لقد أجبرتني نرجس كل هذه السنين على العمل المضني. كم مشيتُ في الطريق المجمّدة بحذاء بال. سينقضي الصيف، وسيرجع الشتاء، وأعود لأحمل دلو الماء عدة مرات في اليوم، انظري إلى قدميّ، لقد اقتُلعَ إظفر إصبعي هذا من شدة البرد".

"أوه، يا لقساوتها! لماذا لا تقولي لابنها عن أفعالها هذه؟".

"لا أقدر، لو بحتُ له، لضربني، آه، لو تعرفين كم من الخراف قد جززتُ في هذا الصيف". قالت كوهار، بينما جارتها تهمّ بصبّ الماء على جسدها الغضّ.

حينما خرجتا من الحمّام، من بعيد، رأت كوهار صليباً على قبّة كنيسة، وعرفت بأنه بيت الصلاة، "ليتني أدخلها، تلك الكنيسة"... قالت كوهار. "لمَ لا؟! ... بإمكانك أن تدخليها. إنها كنيسة للسريان ... دعينا نصعد إليها"، أجابتها سلطانة. دخلت المرأتان إلى المكان، وهناك غصّت كوهار، واغرورقت عيناها بالدموع، وهي واقفة أمام صليب خشبي كبير، أشعلت شمعة في الكنيسة الخالية، وتذكرت قريتها وطفولتها وبوغوص، "ماذا لو جلبت مريم هنا، وطلبت من الكاهن سراً أن يعمّدها". وهي تقف أمام المحراب، ثم تحسست لدى خروجها حائط الكنيسة الحجري العالي؛ لتتبارك به.

في ذلك اليوم، ولما رجعت كوهار إلى البيت، رأت ابنتها نائمة في حضن جدّتها. وتعجّبت كوهار من محبة المرأة لحفيدتها". عجباً كيف أن الأجداد يحبّون أحفادهم أكثر ممّا يحبون أولادهم! كما كانت تقول جدّتي،

ذاك لأن الأحفاد يشبونهم أكثر مما يشبهون والديهم". نظرت كوهار فيما بعد، وتفحّصت وجه ابنتها، فإذا كل ما فيها يشبه الجدّة نرجس، لون شعرها الداكن، عيناها البنيتان، بشرتها الحنطية اللون، ثم قالت في نفسها: "ليتها أخذت من أمّي حُسن وجهها".

بعد أن استرجع بوغوص صحته بعد أيام من السفر، تفقد السوق في الموصل، وبحث عن عمل بعد أن دار في محلات صانعي السروج. سمح له أحد الرجال أن يعمل في محله مؤقّتاً، ثم سرعان ما انبهر بمهارة بوغوص في دقّة العمل، وكان يراقبه كيف يقضي ساعات طويلة دون أن يقول الكثير. لم يكن يخرج من محله الصغير إلا لكي يشتري المواد التي يحتاجها في مهنته، وكان يشرف بنفسه على دباغة الجلود التي يحتاجها. سرعان ما شاع في السوق خبر وصول صانع سروج ماهر من بلاد تركيا يُدعى "فاضل". خاف بوغوص أن يعلن بأنه أرمني، لكنه حينما سُئل كيف أتقن حرفة السروجية، كذب، وتكلم بلغة عربية ركيكية، "عشنا لفترة، وأنا صبي خارج اسطنبول، كان خالي صانع سروج ماهراً، تدرّب على أيدي الأرمن هناك". وهكذا صدّقه مَن في السوق إلى حين ظانّين أنه تركي.

استأجر بوغوص غرفة بقرب النهر، وجمع المال الذي كان يخبّئه جيداً في ركن الغرفة، لعلّه يعثر على كوهار ذات يوم، ويتّخذها زوجة.

في يوم أحد، قرّر أن يذهب إلى كنيسة الأرمن؛ ليصلّي، ويسأل عن كوهار، وهناك سأل القسّيس عما إذا كان يعرف شيئاً عن أرملة، اسمها آناهيد وابنتها كوهار. بحث القسّيس في قائمة أسماء النازحين إلى الموصل، ولم يعثر لا على اسم آناهيد ولا اسم كوهار. لو ذكر بوغوص أسماء الصغيرين، لدلّه عليهما "ليس عندنا في قوائمنا هذه الأسماء، لكني لو سمعتُ شيئاً، سآتي بنفسي إلى السوق، وأخبرك". قال القسّيس.

بعد بضعة أسابيع، فقد السرّاج الأمل، وانكبّ على العمل، وكانت مهنته

هي الشيء الوحيد الذي يلهيه عن التفكير بكوهار. في الليل، كان يستلقي على فراشه، ويغفو مباشرة من شدة التعب، هكذا مرّت الأيام، وبدأ طيف كوهار يخبو من ذاكرته شيئاً فشيئاً.

الفصل العشرون
الصغيرة مريم

ذات ليلة، بكت الصغيرة مريم ابنة كوهار في منتصف الليل. استيقظت أمها، فأرضعتها، لكنها ظلّت باكية حتى استيقظ الأب منزعجاً، ورفس كوهار صارخاً: "خذي ابنتك، واذهبي إلى المطبخ". حملتها، واستلقت على الأرض والصغيرة بجانبها ملفوفة في بطانية صغيرة.

في الصباح، سمعت والدة أركان صوت مريم، وهي تبكي في المطبخ، "تعالي، يا صغيرتي عندي، فأمّك لا تحبّك، لو كانت تحبّك، لأرضعتك". كانت كوهار قد نامت نوماً عميقاً، في ذلك الصباح، وحلمت بلقاء والدتها وأخويها.

"تعالي، يا صغيرتي؛ لأسقيك الحليب الطازج". قالت الجدّة للرضيعة، وقبل أن تحملها، ضربت بقبضتها كوهار على خاصرتها، فقفزت من النوم: "قومي، وأطعمي الدجاجات خارجاً، وكفاك نوماً، أنت كسولة مثل كل االأرمنيات، وأم رديئة أيضاً، كيف تنامين وابنتك تبكي بجانبك؟".

دخلت كوهار مخدعها، وبكت حتى نشفت دموعها، ونامت من التعب لدقائق، بجانبها كان أركان مستلقياً، ويشعر بحزنها، لكنه لم يكن يقدر أن يقول شيئاً.

مرت الأيام، وكان جسد كوهار يضعف في كل يوم من شدة الحزن والتعب. لكن ابنتها كانت ملجأها الوحيد للهروب من قساوة الناس، وحينما بدأت الصغيرة تنطق ببعض الكلمات، علّمتها الأرمنية. وضعت كوهار صغيرتها في حضنها ذات يوم، وغنّت لها أغنية قد تعلّمتها من جدّتها:

"الشمس قد مسّت بحيرة وان،

الشمس قد مسّت جبل ماسيس،

أين أتيت، يا طيري الغريب؟

لاتبك... أنا مَن عليه أن يبكي،

ابحث أنت عن زهرتكِ، وأنا سأبحث عن محبوبتي،

أتوسل إليك ألا تبك، تعالَ، يا طيري الغالي، واحكِ لي،

مبارك الجبل الذي أتيتَ، منه، خانتك الزهرة، أليس كذلك؟

وأنا قد خانتني غاليتي، أتوسّل إليك ألا تبكِ،

أنا خضراء مثل صنوبرة،

تعالَ، وكلّمني؛ لأني سأميّز صوتك،

أنا خضراء مثل صنوبرة،

تعالَ، وكلّمني؛ لأني سأميّز صوتك،

أنت، أيها الطائر الغريب، إني أعرفك جيداً ...

سمعت نرجس صوت كوهار، وهي تغنّي بالأرمنية من باب غرفة النوم الموصد؛ إذ كانت تتنصّت على كنّتها، وأقسمت أن تشي بالخبر إلى ابنها حالما يرجع.

حين أتى أركان إلى البيت بعد أيام، قالت له: "زوجتك تعلّم ابنتك الأرمنية، ضرب أركان كوهار ضرباً مبرحاً، "أصحيح أنك تعلمين ابنتي صلوات مسيحية باللغة الأرمنية؟ قولي الحقيقة". قبل أن تدافع كوهار عن نفسها، لكمها الرجل، ووقعت كوهار أرضاً.

"ابنتي لن تتكلّم غير الكردية، هل فهمت هذا، أيتها القذرة؟ إن لم

تسمعي كلامي، فسأتزوج من امرأة أخرى، وتصبحين خادمة عند قدميها، أنت وابنتك"... قال هذا، ثم شدّها من ضفيرتها. بكت الصغيرة مريم، وهي ترى والدتها مطروحة أرضاً. بعد تلك الحادثة، فكرت كوهار أن تأخذ ابنتها، وتهرب بها بعيداً إلى مكان؛ حيث تحتمي به من قساوة أركان ووالدته.

بعد أيام، طلبت كوهار من جارتها سلطانة "لنذهب إلى السوق في ماردين قريباً، قولي لوالدة أركان أن تسمح لنا بالذهاب"... بعدها بأسبوع، خرجت المرأتان، واقترحت سلطانة أن يعرجا عند بائع الأقمشة قبل أن يذهبا لشراء بعض الخضروات "إنه بائع أقمشة سرياني". "لن أدخل". قالت كوهار، وهي مستحية من الخرق التي في حذائها.

"تعالي، ولا تخجلي". قالت لها جارتها.

دخلتا المحل الذي كان له رائحة القطن المعزية، صاحب المتجر سألهما بالسريانية إن كانتا من ماردين، قال رجل جالس في زاوية، "اسألهن إن كنّ أرمنيات".

"بلى، أنا أرمنية، وجارتي كردية"، قالت كوهار.

"وماذا تفعلين هنا؟"، سألها الرجل باللغة الأرمنية، لم تقدر كوهار الرد، بل بكت؛ إذ شعرت بحنين إلى لغتها وأهلها وقريتها.

أشفق الرجل عليها، وقال لها: "تعالي، اجلسي، واحكي لي"... نزعت كوهار الخِمار، وجلست مقابل الرجل؛ إذ سلبت بجمال وجهها قلبه، وهي تحدّثه عن كل الذي حدث، وكيف ترحّلوا، عن جوعهم وعطشهم في الطريق ومقتل والدها مع الضحايا الذين سقطوا بسبب ليرات الذهب. كلّمته عن والدتها وأخويها الصغيرين اللذين أصبحا غنيمة لرجل كردي "أمنيّتي أن أعثر على والدتي وأخوي... لابد أنهما قد كبرا الآن، أخشى أن شراً قد لحق بهما". أيضاً حكت له عن مقتل صغار القرية والمطران على يدي الضابط سلمان". قالت كوهار باكية، ثم أضافت "كل ذلك لا يقاس بحزني الآن، لقد أخذني

رجل كردي، وأصبحت خادمة وزوجة له. أريد الهرب، ولا أعرف إلى أين".

"لا تبكِ". قال الرجل: "سوف اساعدك في العثور على أمك، وأخلّصك من هذا الرجل الذي سباكِ".

أما سلطانة؛ فقالت لجارتها: "لنذهب، يا جوهر؛ لأن والدة أركان ستستفسر عن غيابنا، ولن تسمح لنا بالخروج فيما بعد".

"اسمك كوهار، جميلة أنت... متى سنلتقي مرة أخرى؟".

"لا أقدر أن أراك"...

"حاولي، يا كوهار، أن تأتي غداً". توسّل بها الرجل، وهو يضغط على رسغها.

"بعد غدٍ، ربما... هنا في المكان ذاته".

"اسمي آرا أفاكيان ... سأكون في انتظارك". وقبل أن تخرج، قال لها الرجل: "خذي هذه القطعة الجميلة من المخمل، هدية مني إليك".

أخذتها كوهار، وخرجت مسرعة، وغطّت وجهها بالخِمار قائلة لجارتها: "إياكِ أن تقولي لأحد بأننا التقيا هذا الرجل".

وعدتها جارتها قائلة: "سرّك مصون هنا في قلبي". قالت المرأة، وهي تضع يدها اليمنى على صدرها، ثم وعدتها ألا تخبر أحداً. ثم مشت كلا المرأتين باتجاه سوق الخضراوات تاركة آرا خلفها بعد أن سلبت بجمالها قلبه.

في البيت، تحسّست كوهار قطعة المخمل التي أهداها الرجل، ورفعتها إلى أنفها قائلة: "قد لا أراه مرة أخرى".

لم تقدر أن تصعد كوهار إلى السوق في ماردين، كما وعدت الرجل، جلست في غرفتها تبكي، وتفكّر في آرا. مرّت أيام لم تستطع أن تغادر البيت فيها، لكنها لم تنس الرجل، بل تخيّلت ما قد يكون شكل حياته "لابد أنه من عائلة ثرية، ووالده من وجهاء الأرمن"...

الفصل الواحد والعشرون
بوغوص هو فاضل وفاضل هو بوغوص

صعق بوغوص حينما سأله صاحب محل السروج حيث يعمل "يا بني، لماذا لا تتزوج؟". تحجّج بوغوص، "أنا فقير، ولا أقدر أن أتزوّج".

اقترح عليه الرجل "أنت شابّ مؤدّب، لديّ بنت جميلة، تزوّجها، وعشْ معنا في البيت، إنْ شئت".

حاول بوغوص أن يتملّص من الموضوع خوفاً من أن يكشف أحد سرّه، ويعرف بأنه أرمنيّ، لكن الرجل ألحّ على بوغوص بسؤاله "تعال عندنا، وسنطبخ لك ما تشتهي، لا يجوز أن تبقى بلا زواج، يقولون بأن الزواج نصف الدين، وهذا كلام صحيح"...

وجد بوغوص نفسه في بيت الرجل بعد أسابيع، ودخلت الشابة، واسمها عطية بأكواب الشاي بعد الغداء، وأعجبه جمالها. خطبها بعد بضعة أيام دون أن يكشف عن حقيقته، وكان يركع أيام الجمع في المسجد مع الرجل الذي سيناسبه، وفي كل ركعة، يمجّد اسم يسوع، ويعمل إشارة الصليب في قلبه.

بعد أشهر، استأجر بوغوص بيتاً قرب عمله متهيّئاً لزواجه، في ليلة زفافه، وقبل أن يجتمع بزوجته عطية، قال لها: "أريد أن تعرفي سرّي، أنا أرمنيّ مسيحيّ، ولن أعتنق دينك، صلّ على طريقتك، وأنا سأرفع رأسي للصلاة لمخلّصي يسوع، ولو صار عندنا أولاد، فهم سيتبعون ديني، وليس دينك".

تعجّبت عطية في بادئ الأمر، لكنها فكّرت، وقالت له بتحمّس: "دينك ديني، وإلهك إلهي، أنا أحبّ عيسى بن مريم، سرّك سيبقى معي حتى

الموت". ثم تعانقا، ودخلا الفراش، وأحبّا بعضهما البعض، شكر بوغوص الله؛ لأنه تزوّج من امرأة حسنة، قال لها في الصباح: "لقد عوّضني الله بامرأة طيبة، أفتح عيني في الصباح؛ لأرى وجهك الحسن".

لم يكن بوغوص يخرج يوم الأحد صباحاً إلى العمل إلا ويركع على ركبتيه مصلّياً، وكانت زوجته تركع بجانبه، وتحفظ مايردّده هو من صلوات بالأرمنية. سألت زوجها ذات مرة، وقالت له "كلّمني عن بلاد هاييستان البعيدة". ثم كلمها عن بلاد جبال أرمينا قائلاً: "يقولون بأنها بلاد بجبال ساحرة، وديانها وبحيراتها لا مثيل لها، في الصيف، تثمر أشجار المشمش، ويزهر الرمّان، أديرتها القديمة بناها الرهبان، وكأن الحجارة عجينة في أياديهم، يقال إنهم يسمعون صوت الله في تلك الأديرة، أمام قمّة جبل ماسيس، فهو يطل بجبروته وقدسيته؛ فلا يمكن الهروب من حضرته، حلمي أن أصعد إلى قمّته، ثم أنزل من الجهة الأخرى، ولو أن رجلاً تركياً صادفني، فإني سوف أبصق على جبينه، هذا أقل ما يمكن أن أفعله مقابل ما فعلوه بنا".

في السادس من شهر كانون الأول في السنة الميلادية، خرج بوغوص باكراً من بيته، وهو مرتدٍ ثياباً أنيقة، وبصحبته زوجته الجميلة التي كانت ترتدي الخِمار والعباءة، كانت وجهتهما الكنيسة، تحمّست زوجته للدخول للمرة الأولى إلى بيت الله، وعند الباب، خلعت عباءتها، وهناك قلّدت زوجها في كل ما فعله من ممارسة الطقوس، ركعت مثله، وتناولت من يد القسّيس القربان المقدّس. حينما رجعا من الكنيسة، قال له جاره بخبث: "كأن اليوم عيدك، يا أسطة فاضل؟!"... ارتبك بوغوص، وكذب قائلاً: "إنه يوم عادي، نزلنا أنا وزوجتي لنزور بعض الأقرباء"...

سأل زوجته إن كان جاره يعرف حقيقته " لا تخف"، قالت زوجته "إنه رجل مريض بالسلّ، وسيموت قريباً"...

لم يكن بوغوص يعرف بأن كل مَن في حيّه يعرف بأنه أرمنيّ، وأن الجميع كانوا يحترمونه.

ذات يوم، ذهبت زوجته إلى الحكيم، ورجعت قائلة لزوجها: "إني حبلى". فرح بوغوص، وانتظر مولوده بشغف. في بداية الشتاء، وضعت زوجته صبياً جميلاً، دعاه أبوه آدم.

الفصل الثاني والعشرون
الهروب

صعدت سلطانة إلى السوق، ودخلت عند البزاز؛ لتشتري بعض الأقمشة، وهناك رأت آرا، سألها عن كوهار، وأجابت بأنها لم تقدر أن تصطحبها.

رجعت، وقالت لجارتها: "لقد رأيتُ تاجر الأقمشة الأرمني الذي تكلّمت معه، وهو يريد أن يراك غداً"...

"لنذهب غداً إلى السوق في ساعة متأخّرة من الصباح"... قالت كوهار.

"حسناً... عند الظهر، سأمرّ وآخذك".

في اليوم التالي، استطاعت كوهار أن تقنع والدة أركان بالخروج بمعيّة سلطانة. في السوق، التقت بالخفاء آرا أفاكيان بعيداً عن أعين الناس في محلّ الرجل السرياني، وكان الرجل قد تفاجأ برؤيتها قائلاً: "كنت أعرف بأني سأراك مرة أخرى، إنه قدرنا، يا حبيبتي، أنا بحاجة إلى امرأة مثلك".

"لقد جئت إلى ماردين باحثاً عن امرأة، والآن قد وجدتها؟ ألا يوجد نساء في مدينتكم؟" سألت كوهار الرجل بتهكّم!.

"لا يوجد في الموصل بنات مثلك، يا كوهار، أخي الصغير كان محظوظاً، وتزوّج من امرأة من عائلة طيبة".

سألته كوهار: "وهل لديها أخت أو قريبات صالحات للزواج؟".

"نعم، لديها أخوات، لكن أمي تقول بأنه ليس حسناً أن يأخذ المرء رغيفين من القفّة ذاتها".

"لكني بعصمة رجل".

"زواجك باطل من هذا الرجل العصملي، أوف أوف"...

"إنه كردي، وليس عثماني".

"لا أريد أن أعرف عنه شيئاً". قال آرا.

أدمعت عينا كوهار، وسألها عما بها "لاشيء، أكاد أختنق في بيت الرجل الغريب"...

"لا تخافي، سأنقذك منه، سأكون خارج ماردين لأشهر قليلة، وأرجع في الخريف، لابد أن أراك، بل أريد أن آخذك معي".

"أنت جادّ فيما تقول؟ ألا تخاف أن يقتلك زوجي؟".

"من أجلك، سأخاطر بحياتي"... قال الرجل، وهو يبتسم كاشفاً عن صف من أسنانه البيض.

لم تصدّق كوهار بأن خلاصها لم يكن بعيداً، حينما كرّر لها "انتظريني حينما أرجع"...

في مطلع الخريف، ذهبت كوهار إلى حمّام النساء بصحبة سلطانة، ومرّت بالدكّان؛ حيث كانت تلتقي آرا عند بائع الأقمشة السرياني. لم يكن الرجل هناك، قال لها البزاز: "آرا سيكون هنا بعد أسبوع".

حاولت كوهار أن تتعذّر، وتخرج من البيت بعد سبعة أيام، لكنها لم تقدر، بعد أيام قليلة، وجدت نفسها وحدها في البيت، وصعدت مسرعة إلى السوق تاركة ابنتها عند سلطانة. التقت آرا الذي قال لها: "كنتُ قلقاً عليك في الأيام الفائتة، خفتُ أن مكروهاً قد أصابك"!

"لم أتمكّن من الخروج"...

"تعالي معي إلى الموصل، وسوف تكونين هناك في أمان معي"... قال الرجل بكل جدية.

"لكنْ؛ كيف تثق بي أنا التي سأترك زوجي من أجلك؟"

"أنت تخونينني مع الرجل الذي معك، قلتُ لك قبلاً، زواجك باطل". "ماذا تريدني أن أفعل؟".

"لدي بعض العمل في إحدى القرى القريبة، وحالما أنهيه، سأعرج على ماردين، وآخذك معي إلى الموصل، قد يطول غيابي لبضعة أسابيع".

"أحتاجك، خذني بعيداً معك الآن"، قالت كوهار متوسّلة.

"لقد رأيتك أول مرة منذ أكثر من سنة تقريباً، تقدرين أن تنتظري شهراً آخر، أليس كذلك، يا صغيرتي؟".

"آرا ... أريد أن أخبرك بشيء"، قالت كوهار بتردّد.

"قولي"...

"لديّ طفلة"... نطقت كوهار بالكلمات بصعوبة. "ماذا؟ لمَ لم تخبريني بهذا من قبل؟" عاتبها آرا ؟ "خفت أنك ستتركني".

"هذا ليس صحيحاً، لن أتركك، لكنْ؛"...

"هل أقدر أن أجلبها معي؟"، سألت كوهار بلهجة توسّل.

"أتريدينني، يا كوهار، أن أتكفّل ببنت رجل مسلم؟"

"إنها ابنتي قبل أن تكون ابنته ... لو تركتها مع أبيها، فسيربّيها على دينه". قالت كوهار، وهي تبكي.

"ستعتنق دينه حتى لو كبرت في بيتي، هي ابنته، وليست ابنتك، اتركيها عنده. سأعوّضك عنها، وسننجب أنا وأنت صغاراً، وأجعلك تنسين الماضي، بل إنك أنت نفسك ستولدين من جديد".

"لكن ابنتي قد كبرت، فقط لو ترى كم هي محبوبة، اسمها مريم، لقد علّمتها لغتنا". قالت كوهار، وهي تمسك برسغ آرا.

"كل هذا غير مهمّ، ستركع مثل المسلمين ذات يوم، وتصلّي صلاتهم حينما تكبر، وتصبح تماماً مثل والدها"، قال آرا بلهجة قاسية.

"لا يمكن ذلك، فوالدها لا يصلّي؛ كي تصلي هي مثله"، قالت كوهار.

"إما أنا، أو ابنتك، اختاري ما يناسبك، وفكّري في المستقبل"، قال الرجل.

رجعت كوهار حزينة إلى البيت، وهي تفكر في مصيرها ومصير ابنتها، وما عسى أن يحدث لها، لو تركتها، ورحلت! سألت كوهار نفسها: "هل أحبّ هذا الرجل؟"، ثم تذكّرت حبّها الأول، وقالت: "لو كنتُ الآن مع بوغوص لما حرتُ، ولصار عندنا أولاد، ولعشنا حياة سعيدة" ... جلست كوهار تبكي، وهي تنظر إلى ابنتها التي كانت تلعب في زاوية الغرفة، "كيف سأتركك، يا صغيرتي، وتكبرين في هذه الدنيا بدوني؟".

لم يرجع آرا من سفرته في الوقت المعين، ذهبت كوهار إلى محل بائع الأقمشة بعد حوالي الشهر؛ إذ قال لها الرجل السرياني: "سيرجع، يا ابنتي، قريباً، هو رجل نبيل، ويحفظ كلمته". مرت الأيام فيها انهارت كوهار، وظنّت بأن الشاب إما أنه قد نسيها وعثر على امرأة ثانية، وتزوّج بها، أو أنه قد قُتل في الطريق من قِبل قطّاعي الطرق.

بعد أشهر كثيرة، جاء صبي عند بيت جارتها سلطانة، وسلّمها رسالة مكتوبة بالأرمنية "أعطي هذه لجارتك جوهر"، قال الصبي، ورحل. أخذتها سلطانة، وسلّمتها بالخفية إلى كوهار عند زريبة الحيوانات خلف الدار.

فتحت كوهار المكتوب بتلهّف، وقرأت محتواه: آسف؛ لأني لم آت في الوقت الذي وعدتكِ به، تعالي بمفردك غداً فجراً في الطريق الجنوبية، وستجدين عربتي في انتظارك عند زاوية سوق الجزّارين، سأكون هناك عند الظلام، توخّي الحذر بكل تحرّكاتك، ولا تنسي أن تتخلّصي من هذه الورقة؛ لئلا تقع بيد أحد، مرة أخرى، أكرر، تعالي بمفردكِ، أحبكِ، أيتها الأرمنية الرقيقة، آرا.

نظرت سلطانة إلى جارتها دون أن ترى ماذا ينطوي في قلب كوهار، وإذا بوجه كوهار قد تغيّر؛ إذ تصلّبت أوردة رقبتها، وشفتاها نشفتا. بلعت كوهار ريقها قائلة: "لا تقولي لأحد بأمر الرسالة هذه ...". تركت سلطانة المكان، وفي قلبها خوف، لا تعرف ما سرّه.

ارتبكت كوهار، وهي تخطّط لهروبها مفكّرة فيما سيكون مصيرها في حال أن خطّتها قد أخفقت. بدأت تغدو وتجيء بعصبية، وكانت تتنفّس بصعوبة، بعد قليل، نظرت إلى الرسالة التي في يدها، فأخفتها في الحائط بين حجرتين خلف المنزل حتى استترت. فجأة تذكّرت عقد الذهب الذي سُرق منها، فدخلت، وبحثت عنه في غرفة نرجس، بينما المرأة جالسة تغزل في فناء الدار. عثرت كوهار على قلادتها مخبّأة بين ثنايا بعض الثياب في صندوق قديم. في تلك الليلة، لم تنم كوهار، كانت خائفة من أن أركان قد يدخل البيت قادماً من ثكنته في أيّ لحظة.

عند ساعة الأصيل، انقبض قلب كوهار، وهي جالسة في غرفتها تفكر في هروبها.

في حلكة الليل، ارتدت ثيابها، وعلّقت برقبتها سلسلة الذهب، وأمسكت بها؛ إذ كانت تلك تميمتها؛ لتحميها من كل شرّ. جلست بقرب ابنتها النائمة، وبعد قليل، بكت بكاء مراً، ثم تحسّست قدمي الصغيرة مريم من تحت الغطاء قائلة في نفسها: "كيف سأتركك، وأرحل؟ ستكبرين بدوني، وسيقولون لك عني بأني عاهرة، قد تركتك، وهربت مع عشيق". ثم لمست وجه ابنتها، وقبّلتها شاعرة بنَفَس الصغيرة يصعد وينزل، وهمّت بالخروج. لكنها فكرت للحظة "لا أريد أن تعيش وتكبر في بيت المسلمين"... وهكذا رجعت كوهار إلى حيث كانت مريم راقدة، فأخذت وسادة من على السرير، ووضعتها على رأس الصغيرة كاتمة أنفاسها. انتفض جسد الصغيرة، ثم حاولت كوهار أن تعدل عن جريمتها، لكنْ؛ خافت من بكاء مريم قد يوقظ العجوزين. بكت وهي تضغط بالوسادة على رأس الصغيرة بقوة، بعد دقائق

قليلة، رفعت الوسادة، وتأكدت كوهار أن مريم لم تكن تتحرك. انتحبت، وهي تسقط على الأرض، ثم دفنت رأسها في ذات المخدّة، بعدها قامت مسرعة، وحملت أشياءها الموضوعة في كيس صغير، وهُرعت إلى حيث كان آرا ينتظرها، ركضت كوهار دون أن تتعب، وكأنها تهرب من ذاكرة سنوات العتمة التي قضتها في بيت الرجل الغريب. من بعيد، ومع مطلع الفجر، رأت عربة الرجل الغني، وكاد قلبها يقفز من بين ضلوعها، صعدت مسرعة، ثم انطلقت المركبة التي كانت وجهتها ولاية الموصل، أخذ آرا يد حبيبته، وقال لها، وهو يدثرها بمعطفه الأنيق "أنت ترتجفين، لماذا"؟

"إني خائفة".

"لا تخافي، أنت في حمايتي الآن، قبل أيام بعثتُ إلى والدتي خبر قدومنا، طلبتُ منها أن تحضر النبيذ الذي عتّقته بنفسها، وهو مخبّأ من سنوات في سرداب البيت في انتظار يوم زفافي. قلتُ لها قريباً ستشربين ذاك النبيذ في إكليل ولدك، لم أقل لها مَن هي العروسة التي ستدخل بيتها، بل اكتفيتُ أن قلت لها بأني قد عثرتُ على فتاة أرمنية، فيها حياء الأرمنيات، ورقّتهن، سأدعها تكتشف جمالكِ بنفسها". نسيت كوهار جريمتها في تلك اللحظة، وهي بجانب الشاب الوسيم الثري آرا أفاكيان. سمعت كلامه الحلو الرقيق القادم من بين أسنانه الناصعة البياض كثلوج الجبال.

بعد قليل، ارتعبت كوهار، وهي تتذكّر فعلتها، وتغيّرت ملامح وجهها، فكان في صوتها حدّة، وهي تسأل: "مادا لو استفسروا عن سنواتي التي قضيتُها بعد التهجير؟ هل ستقول لوالديك بأني قد فقدتُ عذريّتي، وعشتُ خادمة في بيت رجل غريب، وأنجبتُ منه طفلة؟"

"لن يسألني أحد عن ماضيك، لقد ذاق أهلي مرارة حروب كثيرة، ولم يعودوا يسألون عن عذرية الفتاة، لن نقول لهم عن حياتك السابقة، لقد تركنا ماردين خلفنا، ولن نرجع إليها. لكنْ؛ لو عرفت أمي بما قد حصل لك، فلن تستغرب، بل ستحمل همّك معك". بكت كوهار، وهي تتذكّر ابنتها. قال

لها آرا آخذاً إياها بين ذراعيه "لا تجزعي، أنا هنا لأحميك، بل أنا عبد جمال وجهك الباهر، تمنّت لو سألها الرجل عن ابنتها، لقالت له بأنها قد قتلتها، وارتاحت، لكن الرجل أغلق عينيه، وغفا. وظلّت كوهار تحدّق في الأفق من الشبّاك الصغير للعربة، ولما تعبت، أغمضت عينيها، وهي تسمع قرقعة عجلات العربة تتخبّط بالحجارة.

في النهار ذاته، وصل أركان إلى قريته؛ وحينما دخل البيت، رأى والدته حاملة جثة مريم حفيدتها، "ابنتي مريم ... ما بها؟" "صرخ الرجل، لكن نرجس لم تقدر أن تجيب، بل انتحبت، وجاء صوت جدّته المرتجف من زاوية غرفتها "أوَ تعرف ما فعلته بنا تلك الغريبة؟ لقد قتلت ابنتك، ورحلت. لابد أنها قد سحرت بجمالها رجلاً غنياً، اخرج، يا ولدي، وابحث عنها، ولا تنسى أن تضربها، أرجعها؛ لتنجب لك أطفالاً آخرين".

انهار الرجل، وسقط عند قدمي والدته، ولمس رأس ابنته البارد، بكت والدته أكثر، وهي تسمع ولدها يبكي بصوت عال، لكنه سرعان ما وقف منتصباً، سألته أمه: "ماذا ستفعل الآن؟".

"سلطانة تعرف بسرّ جوهر، اذهبي، ونادي تلك الساقطة". وضعت نرجس الصغيرة على الأريكة، وخرجت، نظر أركان إلى ابنته، وسقط باكياً على ركبتيه، وهو يقلّبها.

حضرت سلطانة، ووقفت أمام أركان مرتعدة؛ حيث قال: "قولي لنا مع مَن قد هربت تلك الفاسدة؟! أنت تعرفين بكل أسرارها"...

"لا أعرف..."، أنكرت سلطانة.

"أنت قوّادة"... صرخ بها أركان ممسكاً بذراعها. بكت الجارة، وارتعشت بين يديه.

"سأقتلك، إن لم تقولي"...

"لم تهرب مع رجل ... بل مع قافلة ذاهبة باتجاه ديار بكر".

"أنت تكذبين"... قال لها، "ليس هناك أرمنيّ يرجع بعد كل هذه السنين، أتظنّين بأني ساذج؟".

دافعت المرأة عن نفسها صارخة "لماذا تلومني، إن كنتَ أنت السبب؟ من قساوتك وقساوة والدتك قد هربت".

"يا مجنونة ... لقد قتلت ابنتها"... قال أركان بغضب، وهو يشير إلى جثة ابنته المرمية بقربه.

"قتلت مريم؟ هذه العاهرة قتلت ابنتها، وهربت؟ "صرخت سلطانة، وهي مذعورة من مشهد جثة الصغيرة مريم فوق الأريكة.

"أنت تعرفين شيئاً ... تكلّمي ... ثقي أني لن أؤذيك"... أكّد لها أركان، وهو قد هدأ قليلاً.

"لقد هربت إلى ولاية الموصل"، قالت سلطانة، ثم أجهشت بالبكاء، "صدّقوني، أنا لا أعرف شيئاً".

"مع مَن ؟" سأل أركان بهدوء.

"مع رجل أرمني غني تاجر للأقمشة، لقبه أفاكيان"، قالت ثم خرجت فوراً، وهي مطأطئة الرأس.

بقي أركان ساهراً تلك الليلة يفكر، "سأسافر إلى ولاية الموصل، وأبحث عنها؛ لأحول عيشتها الرافهة غماً ونكداً، هذا إذا لم أقتلها، لقد هربت الشيطانة، لكنْ؛ أين يمكنها أن تتوارى وتختبئ من غضبي"؟.

الفصل الثالث والعشرون
كوهار في الموصل

كان بوغوص يأخذ ابنه في حضنه كل ليلة، ويحكي له حكايات عن الأرمن، وعن يسوع الطفل؛ كي ترسخ في ذهنه، ولا ينسى بأنه أرمني مسيحي، "لقد جاء الملاك للمطوبة مريم، وقال لها - ستحملين، وتنجبين المخلّص - بعدها بأشهر، وُلد الصغير، ووضعته أمه العذراء في مهد حقير، وذات يوم تكلّم الطفل الهادي يسوع قائلاً لوالدته: أنا هو المخلّص، يا أماه، فتعجّبت الأم، وقالت - ابني هذا ليس مثل باقي الأطفال، معجزة هو، وسيكبر، وسوف يصنع العجائب -"، كان الصغير آدم يغفو على صوت والده، وهو يحكي له قصصاً عن المسيح مثل هذه، روى له مرة قصة غريبة عن يسوع بن مريم، وقال: وفي باكورة حياته، كان الجميع يعرف بأن ابن يوسف هذا ليس سوى طفل معجزة، فمرة وهو يصنع مع رفاقه طيوراً من الطين، وإذا بالطير الذي صنعه يسوع قد حلّق بعيداً. سجد ليسوع الأطفال وكل مَن حوله، حتى إن أباه قد خرّ عند قدميه قائلاً: "أنت ابن الآلهة"، لكن المسيح بقي متواضعاً، ولم يركب الحصان في حياته".

كان الصغير آدم في كل مرة يسمع والده يحكي له حكاية يغمض عينيه، وهو يسمع ذات القصص التي يكرّرها له والده، ولا يملّ من حكاية التنين الذي عند بحيرة وان، ذاك التنين البني اللون بحراشفه الحمر ورؤوسه السبعة الذي كان الجميع يهابونه إلى درجة أن أهل القرية رسموا صورته على رايات أبطالهم، كان يخرج من البحيرة، وتغرق المدينة. "إله الشر هو ذاك التنين، ومالك الرياح والبحيرة، لما يغضب، تضرب الأعاصير، الرعد

ليس إلا عطسته، يقتله البطل فاراش، ويموت التنين". وكان الصغير ينبهر بتلك الأماكن القصية التي في حكايات والده.

نزل آرا وعروسه الجديدة، ومكثا في إحدى الليالي في خان، وطلب من سائس العربة أن يحلّ بعضاً من الأمتعة، قدّم الفتى اليافع لكوهار بعدما ارتاحا فستاناً من الديباج الدمشقي. ثم ناولها وشاحاً من الحرير الأزرق، قال لها: "قبل أن نصل الموصل، ضعي هذه الثياب عليك؛ كي تزيد من جمالك حسناً، فتبهرين والدتي وكل مَن في البيت بطلعتك البهية".

"كما تشاء"، قالت كوهار.

"معي ستكون حياتك كلها حبور وبهجة". قال الرجل بثقة، ثم أخذها بين ذراعيه، وقال لها: "سنعمل عرساً كبيراً في حديقة منزلنا في الموصل، وسندعو الكثير من الأصدقاء؛ لأفتخر بجمالك قدّامهم". أما كوهار؛ فلم تقل شيئاً؛ إذ كانت تفكر في حجم الإثم الذي اقترفته.

في اليوم التالي فجراً، انطلقت العربة بينما المركبة تشقّ طريقها نحو ولاية الموصل. بعد سفر أسابيع، وصلا. وما إن دخلت كوهار البيت حتى تعجّبت من فخامته؛ إذ كان المنزل واقعاً على ضفة نهر دجلة. وكان مسكنها الجديد أكبر بكثير مما تخيّلت. رحّب بها أهل البيت، لكنْ؛ سرعان ما تهرّبت كوهار منهم بحجّة التعب من السفر، فدخلت، ونامت، لكنْ؛ بعد هنيهة، قفزت صارخة: "مريم"! شعرت كأن روحها قد فارقت جسدها، وبدأت تحوم في دهاليز مظلمة، " لابد أن الله سيعذّبني في جحيمه حينما أموت". ظلّت ساهرة في تلك الليلة حتى طلع الفجر، وهي تبكي، وتنوح على ابنتها، وبعدها لا تدري إن كانت قد نامت أم لا! فحلمت بأنها ما تزال مقيّدة في بيت أركان، وبأنها تسمع صوت العجوز جدّته، وهي تغنّي، استيقظت كوهار، وأجهشت بالبكاء.

رتّبت العائلة حفل زفاف العروسين بعد أيام قليلة. امتدت موائد الطعام أمام المدعوّين، بالعديد من الأصناف، من ورق العريش المحشي، إلى

صحون لحم الضأن المطبوخ على نار هادئة. الدجاج المحمّر علا صواني الرز أيضاً، فوقه رُصَّ لوز محمّص. شرب الجميع من النبيذ المعتّق، وأكل المدعوون من الأطايب التي طبخها الخدم. كانت الحلويات والفواكه المجفّفة قد بهرت كوهار، فقد كادت أن تنسى طعم الجوز والفاكهة في السنين الأخيرة، تذكّرت طفولتها، وتحسّرت على سعادة أيام العيد؛ حيث كانت في بيت أبيها تحضر الحلوى، وتصنع البزديك مع والدتها؛ إذا كانت تمسك لقمة الجوز الصغيرة التي خرجت للتوّ من الفرن، وتغمسها في العسل، وترتّبها في صحن، وبين فترة وأخرى، تضع لقمة في فمها.

والدة آرا شربت الكثير من النبيذ في تلك الليلة، وانتشت، فطلب منها الجميع أن تغنّي، وقفت المرأة البدينة، ورفعت صوتها، وشدت أغنية قديمة:

هناك بعيداً في المدينة الكبيرة تبليسي،

تجوّلنا أنا والرجل الطيّب الذي لي،

تغدّينا في الحانة الصغيرة لحماً مشوياً مع خبز شهي، وشربنا نبيذاً لذيذاً،

مشينا في السوق لساعات،

دخل هو حمّام الرجال، وبقيت أنا وحدي أدور في السوق،

من بعيد، سمعت المطرب في الساحة يغني،

ذاب قلبي لألحانه العذبة،

وهُرعت لأرى وسامة الرجل ذي الصوت الشجي،

وحينما وصلتُ إلى الساحة، لم أجد غير إسكافي يرتق في أحذية بالية،

رجع زوجي من الحمّام، وإذا به يدخّن غليوناً، ووجنتاه متورّدتان،

رحلنا عن تبليسي، وفي قلبي شجن.

صفّق الحاضرون لها بحرارة، وقد رفعت السيدة ذراعها القصيرة حاملة كأس النبيذ، وشربت نخب العروسين. أما زوجها؛ فوقف، وقال لها مازحاً: "أهكذا - يا امرأة - تخونينني، وفي هذا العمر، تعشقين رجلاً غيري؟" ضحك الجميع. أما كوهار؛ فشرد ذهنها، وهي تفكر في كلمات الأغنية التي غنّتها المرأة. قال لها آرا، وهو يضع ذراعه حول عنقها: "هكذا هي أغاني الأرمن كلها حزينة، نحن الشعب الذي يفتخر بالحزن والألم".

لم تقل هي شيئاً، سألها "ما بك، يا حلوتي؟".

"لا شيء، كنتُ أتمنى لو أن والدتي هنا معي وأخويّ؛ ليفرحوا معنا"...

"سنعثر عليهم يوماً، لا تخافي".

استمر الحفل حتى ساعات الفجر، وبعد انصراف المدعوّين، دخل آرا، واضطجع مع كوهار. شعرت عروسه بأن شيئاً ثقيلاً في الظلام قد هبط على صدرها. لم تمنح كوهار نفسها كلياً له، وفي الصباح، فتحت عينيها، ثم فكرت "أين أنا؟ ومَن هذا الرجل النائم بجانبي؟".

في مساء اليوم التالي، تجمّع أقرباء العريس وأصدقاؤه للاحتفال، وطبخ الخدم وليمة أخرى، لا تقل عن التي في اليوم الأول. كانت كوهار متعبة، وتريد أن تلجأ إلى النوم هرباً من الواقع، لكن والدي العريس أصرّا أن تبقى، وتحضر السهرة".

"تعالي، واسمعي ما سأعزف اليوم من ألحان الناي الجميلة"، قال والد العريس، فقامت كوهار، وحضرت الحفل، فيما عزف السيد أفاكيان الدودوك بألحان حزينة، وكان عزفه قد أطرب كل مَن في المكان، أما كوهار؛ فأطلقت الزفرات، وكادت تبكي حينما سمعت موسيقى الناي. "ما بكِ؟" سأل آرا عروسه.

"لا شيء ... إن صوت الدودك يشبه صوت رجل حزين".

قال الرجل: "لأبي نايات كثيرة، لكن الأحبّ لقلبه هذا الذي جلبه أحد أقربائه هدية له، وهو مصنوع من شجرة المشمش النابتة في حقل قريب من بحيرة قرب جبل آرارات".

ناولت والدة العريس كأساً لكوهار "اشربي نبيذي الذي عتّقته بيدي"...

تذوّقته كوهار، ولم يعجبها طعمه المرّ، ثم قالت الأم "لقد عزف لي زوجي يوم زفافنا، كان ذلك منذ سنوات، وكأنه كان في الأمس، يومها عرفتُ أن زوجي يحبّ الدودوك أكثر مني". ابتسمت، وهي تشرب من الخمر، وتسمع زوجها يعزف المزيد من الألحان. بعدها قامت كوهار، وتجوّلت في المنزل قائلة في نفسها: "هل أستحقّ كل هذا؟ هل سينسيني زوجي سنواتي التي عشتُها مع الرجل الذي خطفني، واغتصبني؟".

دخلت كوهار إلى غرفتها، وتمعّنت في الأثاث الفخم، ثمة خزانة مصنوعة من شجر البلّوط، فوقها مرآيا مدوّرة ومؤطّرة بالفضة، أما مشابك الشعر الأنيقة والمشط العاجي؛ فهي لم تر مثلها قبلاً. تحسّست بقدميها نعومة الفرش ذي الالوان القانية، وتذكّرت كم من ليال، قضتها، وهي نائمة على حصيرة مثل خادمة في بيت سيدها، وها هي الآن عندها خدم "أحقاً أستحقّ هذه الحياة التي ظفرتُ بها؟ إن كانت حلماً، فأتمنى أن لا أفيق منه. لكنْ؛ إن كان صدري ضيقاً، فماذا ينفعني وسع هذا البيت، بل ما نفع فسحة العالم؟!. فجأة بدأت تفكّر ببوغوص، وتذكرت كيف كانت تحلم أن تتزوّجه في يوم ما، ثم أطلقت زفرات. "تُرى أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟

أهو على قيد الحياة، ويفكر بي كما أفكر به أنا؟" فكرت في كل هذا، ثم دخلت، ونامت.

في الصباح، تجمّعت عائلة السيد أفاغيان حول مائدة الفطور، ولم تتوقّف الأم عن الكلام، وهي تسرد قصّتها لكوهار، "والدي كان بطلاً، يا عزيزتي، سافر إلى إسطنبول عند الباب العالي، ووقف مدافعاً عن الأرمن

الذين خرجوا للمظاهرات، حينما حاول السلطان عبد الحميد أن يفتك بهم. كان أبي هناك يحمي الأرمن مع بعض رجال القانون، بعدها اعتصم في إحدى الكنائس مع الباقين، وجاءت العصابات، وأحرقت الكنيسة، ومات كل مَن فيها، اليوم نحن - يا ابنتي - محميّون هنا بين العرب في هذه المدينة الجميلة بعيداً عن بطش العصملي".

لم تقل كوهار شيئاً، وهي جالسة تحتسي القهوة، وفكرها قد شرد تماماً، وهي تتظاهر بالسماع.

"هذا الكلام عليك أن تخبريه لأولاد أولادك؛ كي لا ننسى ما حدث لنا، أتفهمين؟"، قالت المرأة.

ضاق قلب كوهار حينما سمعت كلمة "أولادك".

يعد قليل، شرع والد آرا يكلّمها عن حياته "لقد ذقنا الجوع والموت، ونحن مهجّرون، أولاد عمي سافروا إلى بلاد الروس، ونحن وصلنا إلى هنا، جودت بيك المجرم نسيب أنور باشا وزير الحرب جاء للحدود الشرقية؛ حيث أسوار مدينتنا، وأمر بقتل كل مَن فيها، وهربنا نحن نحو بلاد الفرس أولاً. عساكره دخلت قريتنا، وأخلوها من كل سلاح، وبعدها بدأت مجازرهم، كنتُ صغيراً، وأذكر كيف اختبأتُ في حفرة مع أمي وأبي لستة عشر يوماً دون ماء، ولا طعام. لقد تركنا مدننا الجميلة وكنائسها القديمة وأديرتها العريقة. كنا عائلة غنية ومعروفة، أراضينا امتدّت حتى الأفق، وكان الخير يملأ المكان بالمحاصيل الزراعية، كلها ذهبت، لكننا نشكر السماء من أجل هذه المدينة، أهل الموصل قد احتضنونا".

قالت والدة آرا بعد أن رشفت من قهوتها، "انظري مطبخي ما أكبره! هكذا هي المرأة الأرمنية، تقدّس بيتها، وأدوات مطبخها، ومع ذلك، تركت النساء عند التهجير مطابخهنّ رغماً عنهنّ، ورحلن. لابد أن والدتك كانت تحبّ مطبخها أيضاً".

"بلى"، قالت كوهار بحزن.

"آه، يا ابنتي، التعاسة تأتي مسرعة راكبة على ظهر حصان، أما السعادة؛ فتجيء ماشية بتمهل ... هكذا هي أيام الغبطة قليلة ومعدودة، إن ما فعله بنا الأتراك لا يمكن أن ننساه. هذا الكلام ستسمعينه مرة واحدة فقط مني، يا ابنتي، ولن أكرّره؛ لأني أعرف بأنك حفظتِه" ... قالت المرأة.

قاطعها السيد افاكيان، وقال لها: أما أنا؛ فإني سأكرّر كلامي حتى أتأكّد من أنك تحفظين عن ظهر قلب الحقائق، كما حدثت "عمّي كان مقاتلاً، وأنا أفتخر به جداً، فقتل مرّة ستة رجال أتراك، وضعهم في صف واحد، وأطلق رصاصة بعد أن ثبّت فوهة بندقية على رأس ضحيته؛ ليرى إن كانت الطلقة ستنفذ من خلاله، وكم رأساً ستخترق. نعم، لقد فعل بهم ما كانوا يفعلونه بنا، يا ابنتي. مع الطيبين كان أبي طيباً، ومع القساة كان أكثر قساوة". ثم قام السيد أفاكيان، وانصرف إلى محلّ الأقمشة الذي يملكه، قال له ابنه آرا: "سألحق بك، يا والدي بعد قليل".

أخذ آرا عروسه إلى مخدعهما، فقالت، وهي تبكي: "لقد وعدتني بالعثور على والدتي وأخوتي".

"سنذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، ونسأل هناك" ... قال لها، ثم تركها ذاهباً على عمله.

في الأحد التالي، طافت كوهار داخل كنيسة الأرمن، تبحث بين الوجوه عن أمها، بعد الصلاة، سأل آرا الكاهن إن كان يعرف شيئاً "لم أسمع من قبل عن أرملة باسم آناهيد، لكن هوسيب وكريكور، هذان الاسمان ليسا غريبين علي" ... كان القسّيس شاباً يافعاً، وكان هو نفسه يتيماً، "دعوني أسأل القساوسة الآخرين، لعلّهم يعرفون". في تلك الأثناء، بحث القسّيس في الأوراق، ولم يجد شيئاً، لكن كوهار لم تفقد الأمل في العثور على والدتها وأخويها.

شعرت في صباح أحد الأيام بالغثيان، ثم ركضت إلى الحمّام، لحقت بها إحدى الخادمات التي قالت لكوهار بعد أن رأت سيدتها تستفرغ "لابد أنك حبلى".

عضّت كوهار شفتها، وقالت في سرّها: "اللعنة، لا أريد طفلاً".

بعد بضعة أيام، انتظرت كوهار علامات الدورة الشهرية، ولم تكن. فعرفت بأنها حبلى، تذكّرت حملها بابنتها مريم، وبقي شعورها بالذنب ملازماً لها. تصنّعت الفرحة في حضرة حماتها حينما أخبرتها "أنا حبلى".

"إني أتذكّر جيداً، يا ابنتي، سعادتي ببكري الصغير حينما وُلد. فلا يوجد أعظم من شعور المرأة، وهي تضع وليدها الأول". رجعت كوهار إلى غرفتها حزينة، وحاولت النوم قبل أن يحلّ المغيب، وهناك بكت، وتمنّت لو أنها ما كانت قد جاءت إلى هذه الدنيا؛ كي لا تقتل ابنتها، صلّت بدموع إلى الله أن يغفر لها جريمتها.

الفصل الرابع والعشرون
زواج هوسيب

كلّم الشيخ غازي هوسيب ذات يوم قائلاً: "يا ابني، لقد وصلت عمر الزواج، وعليك التفكير بتكوين عائلة، سيكون لك أولاد، يحملون اسم المرحوم والدك".

قال هوسيب: "إني صغير، ولا أعرف ما معنى الزواج".

"لقد ذهبت إلى الكنيسة قبل أيام، وهناك رأيت قساوسة جاؤوا من حلب يرغبون أن يزوّجوا يتيمات حلب من شباب الأرمن في هذه الجهة من النهر". قال الشيخ: "هل أنا محسوب مع هؤلاء؟" سأل هوسيب.

"طبعاً، يا ابني، عليك أن تتزوّج من أرمنية مثلك"...

ثم نادى الشيخ أولاده، وقال لهم: "أريدكم، أن تبنوا بيتاً صغيراً ملاصقاً لبيتنا، سيكون لهوسيب؛ لأنه سيتزوج قريباً".

"هوسيب سيتزوّج؟!! وماذا عني؟"، قال باهر الابن الأصغر.

"اخرس، يا ولد"... نهره والده، ثم قال الشيخ لابنه عبد الله: "خذ هوسيب خارجاً، وقل له ماذا ينبغي أن يفعل الرجل مع المرأة في يوم زفافهما".

"لكني لم أحلق ذقني بعد"، قال هوسيب لعبد الله الذي ضحك قائلاً: "سنعطيك؛ لتشرب قليلاً من زيت السمك الذي يجلبه والدي من الصيادين قرب النهر؛ لتشرب منه، وتصبح رجلاً قوياً".

تحت النجوم المتلألئة، تخيّل هوسيب نفسه مع امرأة، وراقت له الفكرة. دخل، وقال لأبيه "سأذهب إلى الكنيسة غداً، وأسأل عن تفاصيل السفرة"، أما الشيخ غازي؛ فأعطى الشاب مبلغاً من المال، وقال له "خذ هذه النقود، وانزل إلى السوق، واشتر بها خاتمي ذهب، لك ولخطيبتك".

عرج هوسيب في اليوم التالي على الكنيسة، وهو في طريقه إلى السوق، وهناك استفسر عن الرحلة إلى حلب، أعطاه القسّيس كل التفاصيل التي تخصّ السفرة، وقال له عن يتيمات حلب اللواتي يعملن في معمل للخياطة. حينما ترك بوغوص المكان، وقف الكاهن حائراً مفكّراً في أمر بوغوص، كان عليّ أن أسأله، إن كان يعرف امرأة، اسمها كوهار.

في السوق، دخل عند الحلاق؛ ليقصّ شعره، بعدها ذهب إلى الصائغ، واشترى خاتمي ذهب وأقراطاً جميلة، نصحه الصائغ "قل لخطيبتك أن تربط القرطين بخيط نايلون شفاف؛ كي لا يضيع أحدهما، إن سقط من أذنها؛ لأن المرأة تحزن حينما تفقد أحد قُرطيها". كان الحلق عبارة عن حلقتين سميكتين، تتوسّطهما زهرتان ملتفّتان على بعضهما مع كرة ذهبية صغيرة في الأسفل، تتدلّى منها سلاسل قصيرة. حينما رجع هوسيب إلى البيت، دخل عند أمينة مربّيته، وقال لها: "ذهبتُ إلى الصائغ، واشتريتُ خاتمي الخطوبة، وزوج حلق، لكني لم أشتر صليباً". أما هي؛ ففهمت ماذا يقصد، اختفت للحظات، ثم رجعت، وبيدها صليب الذهب ملفوفاً بالمنديل ذاته الذي لفّته فيه من سنوات عديدة، نظر هوسيب إلى الصليب بين يديه، ثم قبّله. شمّ المنديل، وإذا به رائحة خشب قديم، وتذكّر اليوم الأول الذي وصل فيه إلى بيت الشيخ غازي، نظرت أمينة إليه بحنان، ثم أخذ هوسيب يدها، ورفعها إلى فمه، وطبع عليها قبلة، ثم قال للمرأة: "أنت أمي". أما هي؛ فلم تقل شيئاً، لكنها حينما دخلت المطبخ، وكانت وحدها، بكت بصمت.

كان يوماً جميلاً من أيام أيلول، إذ في الفجر، تجمّع الشبان أمام الكنيسة في حي الشعّارين مع القساوسة والرهبان. وحينما اكتمل عدد الفتيان، انطلقوا في موكب إلى بلاد الشام.

بعد سفر أيام، وقبل وصولهم إلى حلب، وقفوا في الطريق للاستراحة بقرب خيام العرب الذين سقوهم حليب الماعز، وأكملوا الطريق حتى وصلوا إلى حلب، وكانت فرحتهم أشدّ من تعبهم، دخلوا إلى الحمّام، واغتسلوا. أما الرهبان المسؤولون عن الملجأ؛ فكانوا قد هيّؤوا مكاناً للقادمين من الموصل، لم ينم الشبان من شدة سعادتهم في ذلك اليوم، ليس لأنهم كانوا سيلتقون الفتيات فقط، بل لأنهم كانوا في مدينة عريقة كثيراً ما سمعوا بها. تمشّوا في شوارع حلب، وطافوا في أزقّة حي الأرمن في الجَدِيْدَة، وتأملوا قِدَمَ منازلها. بعضهم تسلّقوا أسيجة البيوت الفخمة؛ لينظروا حدائقها الجميلة ذوات الأشجار المقلّمة بعناية "الأرمن هنا في عزّ، لم يشملهم الترحيل مثلنا"... قال أحد الشبّان. كان سكان المدينة ينظرون إلى الشبان القادمين بعين رأفة، عالمين بأن الشبان هم أيتام قد جاؤوا من الموصل. تبرّع أحد الأغنياء وعائلته بخروفين، وقال للرهبان: "هذه هدية منا للعرسان، إن احتجتُم شيئاً، اطلبوا منا بلا تردّد"...

أما الشابات اليتيمات في الملجأ؛ فكنّ ينتظرن بلهفة الرجال القادمين من بعيد، كانت فكرة الحب والزواج تؤرّقهنّ، رئيسة الخياطات في معمل الملابس جلست، وحدّثتهنّ عن الزواج. لوسين الشابة التي استعدت كي تقع في الحب، كانت تسمع لما تقوله المسؤولة، "إن أعظم شيء يمكن أن يحدث لك - أيتها الصبية - هو أن تستيقظي في الصباح، وتجدي نفسك بجانب مَن تحبّين". وقامت؛ لتعدّ القهوة لهنّ، ثم صبّتها في فناجين صغيرة، وقدّمتها لزميلاتها اللواتي شربن على عجل، بعدما قالت لهنّ: "اقلبن فناجينكنّ؛ لأقرأ بختكنّ"، قالت لإحدى الشابات "سيأتي شاب من مكان بعيد لخطبتك، ويأخذك معه عبر النهر، وتعيشان حياة هانئة معاً، وتنجبان أولاداً"... وهكذا أسمعت الفتيات ما كنّ يردن أن يسمعنه، ثم فتحت حقيبتها، وأخرجت بعض التبغ، ولفّت سيجارة، ودخّنت قائلة: "يا بنات، أجمل ما في الدنيا هو الحب، أنا أكبر منكنّ، واسمعن مني، لكنْ؛ لا تقلن للراهبات بأني أحدّثكنّ بهذا الكلام، ولا تبحن بسرّي بأني أدخّن".

من خلف ماكنة خياطتها اليدوية كلمتهنّ عن أسرار الزواج وكل ما كانت قد سمعته هي نفسها من أخريات".

بعد أن فرغن من العمل في ذلك اليوم، صنعت الفتيات حلاوة السّكّر، وأزلن شعر أجسادهن غير المرغوب به تهيّؤاً للزواج.

في يوم اللقاء مع الشبان، وقفت اليتيمات في صفوف داخل الكنسية؛ كي يأتي الرجال، ويختار كل واحد لنفسه زوجة. ضفرت النساء شعورهنّ، وبعضهنّ قرصن خدودهنّ؛ كي يتدفّق الدم في وجناتهنّ، فتتورّد، وقعت عينا هوسيب على صبية، برزت بقامتها الطويلة من بين البنات، وكانت تنظر إله بإعجاب. صلّت لوسين أن يختارها دون جميع النساء الجميلات اللواتي حولها، دفعت برسغها البنت الشقراء الواقفة بجانبها، وسرعان ما استجاب الله لدعائها؛ كي يختارها الشاب الوسيم هوسيب. كانت لوسين قد زيّنت عنقها ببعض حبّات فضية، جمعتها مما كان قد فضل من الزبائن، التقت عينا هوسيب عينيها، فابتسم لها، ثم ذهب إلى القسّيس المسؤول، وقال له "تلك الفتاة ذات الضفائر السود قد أعجبتني، قل لها بأن اسمي هوسيب، وأريد خطبتها". وهكذا فعل كل شاب؛ إذ اختار لنفسه شابة، وحسب العدد؛ إذ لم يزد ولم ينقص عدد الشبان عن الشابات.

في المساء نفسه، رتّب رجال الدين اللقاء بين الشبان والصبايا في ساحة الكنيسة؛ حيث صفّوا المقاعد. جلس هوسيب بحانب الشابة للتعارف، وبدأا يتكلمان. وما إن نطقت كلماتها الأولى بالأرمنية، تذكّر صوت أمه. كلّمته الشابة لوسين عن سنوات الحرمان والجوع والبرد حينما وصلت يتيمة مع بعض المرحّلين إلى حلب قادمة من عنتاب، وكيف سقط والداها في الطريق، وماتا. هكذا أحبّها هوسيب، ولم تعرف هي ماذا تقول حينما قال لها: "أنا رقيق الحال، أعيش في بيت مسلمين، وستعيشين معي هناك، سننزل إلى كنيسة الأرمن مرّتين في الشهر". رضيت لوسين بواقع خطيبها، ورغم فقره، فهي أحبّته.

رتّب الرهبان والقساوسة لقاءات الشبان والفتيات كل مساء؛ إذ كانوا - أحياناً - يقدمون لهم القهوة مع بعض الحلويات، وأحياناً أخرى يضيّفونهم ببعض الفاكهة، وكانوا يصرفونهم قبل أن يحلّ الليل. الفتيات كنّ يرجعن إلى معمل الخياطة، ويشتغلن حتى ساعات الفجر في صناعة فساتين زفافهنّ. أما أقمشة الفساتين البيض؛ فكانت قد تبرّعت بها امرأة أرمنية غنية.

بعدها بأيام، وقف الشبان، كل مع فتاته أمام الكهنة في الكنيسة، وتزوّجوا. حضر الزفاف أغلب أهالي حيّ الأرمن. بعد المراسيم، شربوا النبيذ، ورقصوا رقصة التامزارا؛ إذ شبكوا الأيادي، وشكّلوا حلقة، وعلت ضحكاتهم، وهم يدورون، كانت حمرة الجمر المتّقدة تحت العجول المشويّة تنعكس على وجنات العرائس، وهن فرحات في ليلتهنّ. ملأت رائحة الشواء المكان، وأفرحت - أيضاً - قلوب الراهبات الجالسات بورع. ارتفعت أصوات الحاضرين مبتهجين بزواج اليتامى، أما القساوسة؛ فقد خدموا بأنفسهم المتزوّجين الجدد، وشربوا مع الجميع النبيذ حتى ساعة متأخرة من الليل. في تلك الليلة، فتح الأرمن بيوتهم للعرسان الجدد، واستضافوا المتزوّجين الجدد قائلين: "لايصحّ أن تناموا في الدير".

حينما رجع هوسيب بصحبة زوجته، كان كريكور قد ترك البيت، ولم يعرف أحداً عنه شيئاً قط. بكى هوسيب، وشعر بالذنب معتقداً أن غيابه كان السبب، لكنه في أعماقه كان يعرف بأن كريكور يعشق الأشجار، وأن شيئاً ما في قلب الأشجار يناديه، وتذكّر كيف كان كريكور يعتني بكل شجرة متيبّسة حينما يمرّ بجانبها، ويسقيها بصمت. أما الشيخ غازي؛ فلم يأكل، ولم يشرب منذ رحيل كريكور.

هبّ هوسيب للخروج والبحث عن أخيه في اليوم التالي "لا تذهب وتترك عروسك الجديدة وحدها، أخوك لم يعد طفلاً، قال محمود ابن الشيخ غازي.

"عليّ أن أجده، والدتي قبل أن تموت نصحتني قائلة بأن الوعاء الكبير دائماً يحتوي الوعاء الصغير".

"انتظر أياماً قليلة، لعلّه يرجع".

"حسناً، سأنتظره، لكنه إن لم يرجع بعد يومين، سأخرج باحثاً عنه".

لم يرجع كريكور إلى بيت الشيخ غازي، ذات فجر، قال هوسيب لإخوته وزوجته "أنا ذاهب للبحث عن أخي".

"لن تذهب وحدك، سنأتي معك"، قال أولاد الشيخ غازي.

الخاتمة

مرت الأيام، ولم ينس أركان العهد الذي أخذه على نفسه، وهو العثور على كوهار، ومن ثم؛ قتلها. خصوصاً أنه قد شاع الخبر في كل القرية الكلام عن كوهار، وكيف واتاها الحظ، ورحلت مع رجل غني. أما والدته؛ فقالت له: "انسها، يا بُني، وتزوّج امرأة مناسبة لك"، لكن عزمه على قتلها كان يزداد كلما فكر بها، وبما فعلته بمريم.

أما كوهار؛ فكانت تصيبها نوبات من الكآبة في أثناء حملها، فتشعر بضيق في صدرها، وتقف في شرفة البيت، وتنظر إلى النهر "حزني يشتد كل يوم رغم العزّ الذي أعيش فيه، لا أدري ما السبب!". حاول زوجها جاهداً أن يُسعدها، فاقترح عليها مرة أن يشتري فرساً لابنهما "لكن ابننا لم يولد بعد، بل ماذا لو صار عندنا بنت؟" قالت كوهار بنبرة حزنٍ.

"لا يهمّ، أولادي وبناتي سيمتطون الخيول. أريد ولداً يصبح فارساً شجاعاً. يركب الخيول، ويطير حتى السحاب".

"كما تشاء"... قالت كوهار مغتمّة، وهي تتذكّر بوغوص وأحلامهما معاً، أن يكون لهما أولاد، وحقل وأطفال يركبون الخيول، وينطلقون في السهول الخضراء.

نزل الرجل، وقال لوالده: "سأذهب إلى سوق الخيول، وأشتري مهراً"...

"إنه فأل سيّئ أن تشتري حصاناً لصبي، لم يولد بعد"... قال له والده.

"أريد أن أسعد زوجتي".

بعد أن اشترى آرا مهراً أبيض اللون، نزل إلى السوق باحثاً عن أفضل صانع سروج في المدينة، ونصحه الكثيرون "اذهب إلى رجل، اسمه فاضل، فهو أمهر سروجي في الموصل".

هكذا نزل آرا إلى السوق، وهناك التقى ببوغوص، وطلب منه أن يصنع سرجاً صغيراً.

شرع بوغوص بصناعة السرج، وبعد أسابيع، فرغ من صناعته، فأخذه بنفسه إلى بيت عائلة أفاكيان. نادى آرا زوجته قائلاً: "تعالي إلى الإسطبل، وانظري إلى السرج الجديد الذي صُنع لولدنا".

وما إن دخلت كوهار الإصطبل حتى عرفت بوغوص؛ حيث كان مشغولاً في تثبيت السرج على المهر. قالت بصوت مخنوق: "أعرف هذا الرجل".

"كوهار؟" صرخ بوغوص متعجّباً، وهو يلتفت نحوها.

"نعم... آه، يا لها من دنيا صغيرة. كنتُ أعرف بأني سألتقيك مرة أخرى، وها نحن"... قالت له، وهي تمسك ببعض القضبان الخشبية بقربها خشية أن تقع من شدة صدمتها.

"أتعرفان بعضكما؟"، سأل آرا زوجته.

"بوغوص ابن بلدتي"... قالت، وهي تحاول أن تخفي عواطفها، شعرت بقلبها يخفق بقوة، وكفّاها تتعرقان. نظرت إلى وجه بوغوص باحثة عن عينيه، لكنه تفادى نظراتها.

"أعرف والد كوهار المرحوم من زمن بعيد"... قال السروجي متلعثماً، وهو ما يزال يثبت السرج، ويشغل نفسه متماطلاً.

"هل تزوّجت؟"، سألته كوهار، وكانت تتمنى أن يرد عليها بالإيجاب.

ارتبك بوغوص، وقال: "نعم ... تزوّجت من بنت عرب، لكنها طيبة إلى أقصى حد. أنجبنا ولداً، لكنه يتبع ديني"...

قال آرا لصانع السروج: "اجلب زوجتك وابنك، وتفضّلوا عندنا للعشاء يوم الأحد"....

اعتذر بوغوص متحاشياً كوهار، لكنه قبل أن يغادر، سأل آرا عما حدث لباقي عائلة كوهار. أخبره آرا بأن المرأة وولديها كانوا قد رحلوا مع رجل كردي "لا أحد يعرف، ما نزال نسأل، ونبحث".

"يقال إن كثيرين من قريتنا وصلوا إلى دير الزور".

"سنسأل أحد الراحلين إلى هناك، لعلّنا نعثر عليهم".

حضر قسّيس الكنيسة عند عائلة أفاكيان في أحد الأيام، وطلب أن يقابل كوهار. عرفت بأن الأمر يتعلّق بوالدتها، نزلت من غرفتها مسرعة لمقابلة رجل الدين، "لقد تذكّرتُ بأن لدينا يتيمين يعيشان في بيت رجل مسلم، كان من المفترض أن أقول لك ذلك من فترة، لكني لم أكن متأكداً، الكبير قد رجع قبل فترة من حلب؛ إذ اقترن بفتاة يتيمة". أعطاها الكاهن المعلومات الكافية عن الشيخ غازي. بكت كوهار؛ لأنها فهمت من كلام القسّيس بأن والدتها لم تكن حية. "ماذا عن أمي؟".

"لا أدري، يا ابنتي، كل ما أعرفه أن الصبيين يتيمان". قال القسّيس، وهو منكس الرأس، ثم قام، ونهض؛ ليغادر.

تجمّع أهل البيت حول كوهار، وهي تنوح قائلة: "آه، يا أمي، كم كانت جميلة وحكيمة، الجارات الكرديات كنّ يغرن منك ومن ضفائرك السميكة، كل أصبع من أصابعك كان بموهبة خاصة، في الشتاء كنت تنسجين ملابسنا، وفي الصيف مغزلك لم يكن يغادر حضنكِ، أنت طرّزت ثياب معموديّتنا جميعاً، آه، أيتها الحبيبة، ستبقين حية في قلبي".

"قومي، يا ابنتي، ولا تبكي:، قالت والدة آرا لكنّتِها".

في اليوم التالي، أخذ آرا زوجته، وذهبا إلى بيت الشيخ غازي. ركن آرا

عربته الفخمة أمام دار الشيخ، ونزلت كوهار، ووقفت أمام البيت الذي كان في حقل كبير.

استقبلهما الشيخ، وقال لهما: "طالما انتظرناك، يا ابنتي، هيا تفضلا، اجلسا، سيتفاجأ ابني حينما يعرف بأن أخته هنا، لقد سافر هوسيب إلى حلب، وهناك تزوج منذ أشهر قليلة". شكره آرا ببرود، وأكمل الشيخ حديثه "الولدان مؤدّبان، كنتُ أعرف بأنهما من عائلة محترمة". قال وفي عينيه عبرات، ثم أضاف "كريكور ليس معنا حالياً، لكنه سيرجع قريباً ... في أثناء ذلك، دخل هوسيب بصحبة زوجته لوسين إلى الديوان؛ حيث كانت كوهار تنتظر. وقعت كوهار على عنق أخيها، وبكيا كلاهما، ثم مسحا دموعهما، قال هوسيب وفي صوته غصّة "هذه زوجتي لوسين". غادر الشيخ غازي الديوان تاركاً الأربعة يتكلمون في تفاصيل حياتهم. بكت كوهار حينما عرفت بأن والدتها ماتت جائعة ومتألمة، ثم قالت: "شعرتُ كل تلك السنين بأن شراً قد لحق بها، وبأنها قد انتقلت؛ لتكون مع الرب".

"لقد دفنتها بهاتين اليدين"، قال هوسيب باكياً. وبعد قليل، سألته أخته "لكنْ؛ ماذا عن أخينا كريكور؟".

كلّمها هوسيب عن كريكور الذي اختار الرحيل بعيداً "لا أحد يعرف أين هو، يقال بأنه يعيش مع البدو، لقد بحثنا عنه في كل مكان"...

"سنجده، وسوف نأخذه؛ ليعيش معنا في البيت"... قالت كوهار، وهي تنظر إلى زوجها بنظرات توسّل. "كما تشائين"... قال زوجها.

"لقد يئستُ من البحث"... قال هوسيب.

"حالما نعثر عليه، اتركا بيت هذا الرجل، وتعالا إلى الموصل؛ لتصبحا بقربي".

"لا أقدر، إني أعمل هنا مع إخوتي في حقولهم"... قال هوسيب.

"هل تركتَ دينك المسيحي؟" سأله آرا.

"كلا، لقد حرص الشيخ غازي أن يربّينا تربية مسيحية، أنا ولوسين نتكلّم الأرمنية معاً، لقد أتقنتُ أيضاً الكتابة والقراءة في الكنيسة".

"لم يبق من أهل بيتي إلاكَ أنتَ، كلهم ماتوا، حتى الحي فيهم قد مات، وعيناه مفتوحتان"، قالت كوهار باكية.

"لا تبك، يا عزيزتي، سيرجع كريكور قريباً"... قالت لوسين لكوهار، وهي تضع يدها على كتفها، "أنا - أيضاً - فقدت والدتي، وأنا صغيرة، ماتت أمام عيني، لكن الله عوضني بهوسيب، وأنا الآن حبلى".

خرجت كوهار بصحبة زوجها من بيت الشيخ غازي بعد أن دعت هوسيب وزوجته إلى وجبة غداء في بيتهم في الأسبوع الذي يلي، ثم غادرا البيت، وركبا عربتهما. وقف الشيخ غازي خارجاً، ينظر إلى عربة الرجل الغني تتوارى في الأفق، وهو يفكّر في كريكور.

شعرت كوهار بقلبها يتآكل، وهي تعلم أن بوغوص يسكن في المدينة ذاتها؛ حيث تعيش. كان في قلبها حيّز من الفراغ الذي لم يكن ممكناً لأيّ حب آخر أن يملأه غير بوغوص، "سأذهب إلية بحجّة إخباره عن لقائي بأخي هوسيب، بل سأقول له بأني ما أزال أحبه، فأنا لا أخجل من محبتي له".

في اليوم التالي، ذهبت حيث يعمل، ووقفت عند الباب، وسألها أحد الرجال بصوت مرتفع بعد أن نظر إلى فستانها الثمين وعباءتها الحرير وحذائها غالي الثمن، "ما طلبك، يا سيدة؟".

"أريد أن أتكلم مع ... مع فاضل". قالت مرتبكة للرجل، ثم جاء بوغوص، ووقف عند الباب، واضطرب حينما رأى كوهار في محل عمله، قال لها بالأرمنية: "ماذا تفعلين هنا؟ وماذا تريدين؟ لا أحد يعرفني باسم بوغوص، إياك ولفظ هذا الاسم هنا"...

"أليس لديك ما تقوله لي سوى هذه الكلمات الجارحة؟".

"وماذا تريدين أن أقول؟ نحن في السوق".

"لقد عثرتُ على أخي هوسيب".

"وماذا عن والديك وأخيك الصغير؟"، قال بلهجة أقل حدّة "اسمه كريكور، هل نسيت؟".

"ماذا تريدين مني؟ أنا رجل متزوّج، أرجوك، اتركي المكان"...

"ماذا أريد منك؟ ألا تريد أن تعرف بأن والدتي قد ماتت، وكريكور قد هرب من بيت الشيخ المسلم الذي كبرا عنده هو وهوسيب؟".

"لا تأتي إلى المحل مرة أخرى صوناً لشرفك"، قال بوعوص بغضب.

"هل هي جميلة، زوجتك؟ سألت كوهار؟.

"لا يهمّ، لدي عائلة، وكفى"...

"أنت لا تحبّني، وقد نكثت بالعهد الذي بيننا"، قالت كوهار، وفي صوتها حشرجة.

"كوهار، كل شيء قد انتهى، لقد كنا صغاراً، أنت امرأة متزوّجة من رجل وقور، انظري إلى نفسك، أنت حبلى ... ارجعي إلى بيتك، وانسي الماضي، أنت الآن مثل أختي".

رجعت كوهار باكية، وهي تفكر "ليتني لم أهرب من بيت أركان، ولم أقتل ابنتي... حبيبتي مريم".

كان أركان في تلك الفترة قد تفرّغ تماماً من كل واجباته العسكرية، ولم ينس ابنته المقتولة قائلاً: "ما أنا بالرجل الذي تتمكّن مني امرأة!". سافر إلى ولاية الموصل باحثاً عن كوهار، وحالما وصل إلى السوق، سأل عن صاحب معمل النسيج أفاكيان. لم يمرّ الكثير من الوقت حتى عثر أركان على المشغل. راقب الداخلين والخارجين، وتتبّع أثر السيد أفاكيان وأولاده.

مشى خلفهم، وهم راجعون إلى بيتهم قرب النهر، قال أركان في نفسه، وهو واقف أمام المنزل: "لابد أن جوهر موجودة الآن خلف تلك الأسوار العالية؛ حيث تعيش بتنعّم، وتتمتّع بأملاك هؤلاء الناس"...

استأجر أركان غرفة في الخان قرب السوق، وجلس هناك مفكّراً في حيلة للدخول إلى بيت عائلة أفاكيان. في اليوم التالي، استيقظ، وذهب مباشرة إلى معمل الأقمشة، سأل أحد العاملين الذي خرج ليرمي ببعض النفايات، إن كان أبناء أفاكيان يعيشون مع والدهم في قصره، "نعم، ابناه يعيشان مع والديهما".

"هل السيد الأب هنا في الداخل؟".

"نعم، هل لديك شأن معه؟"، سأل الرجل.

"كلا، سآتي في وقت آخر"، قال أركان، وقبل أن يترك المكان، سأله الرجل: "مَن أنت؟ وماذا تريد من السيد أفاكيان؟"، لم يجبه أركان، بل توجّه إلى بيت العائلة الثرية عند النهر، ووقف سائلاً نفسه: "كيف لي أن أدخل؟ لابد أن أجد طريقة للوصول إلى جوهر".

رجع وتجوّل في السوق، وأكل وجبة غداء، بعدها اشترى سلّة من العنب وبعض حبّات الخوخ، وحملها وذهب إلى النهر؛ حيث منزل العائلة الثرية. فكّر أركان بحيلة؛ ليدخل بها البيت." لا أبالي، لو قبضوا عليّ، وقتلوني بعد أن أكون قد قتلتُها". طرق الباب الخارجي، فتح له البستاني، قال له أركان: "لقد بعثني السيد أفاكيان ببعض الفاكهة"...

"ادخل من باب المطبخ" ... مشى أركان خلف البستاني الذي فتح له الباب، ورجع الرجل إلى عمله في الحديقة.

مرّ الخدم بأركان معتقدين أنه مساعد البستاني، فوضع سلّة العنب على الأرض، وولج مسرعاً إلى داخل المنزل، وصعد إلى الطابق الأعلى باحثاً عن كوهار في كل غرفة.

كانت والدة آرا في إحدى الغرف جالسة تطرّز حينما فتح أركان غفلة الباب، ودخل. قبل أن تصرخ المرأة ضربها على رأسها، فسقطت أرضاً مغمياً عليها، وأسرع ماشياً في الرواق محاولاً العثور على غرفة كوهار، وكلما ضرب يده على قبضة الباب وجده مقفلاً، ولما فتح وولج إحدى الغرف، رأى كوهار جالسة تمشط شعرها.

رأت انعاسكه في المرآة، ثم كتمت صرختها، وظنّت بأنها ترى خيالاً، التفتت، ورأت أركان واقفاً، أقفل الباب، واقترب من كوهار، وصوت أنفاسه تصعد وتنزل، ضحكت كوهار ضحكة كَمَن به مسّ، فيما هو يقترب منها. أمسكها برفق مقرباً أنفه من شعرها قائلاً: "رائحتك رائحة إمرأة غنية الآن، لقد تزوّجت أحد الأغوات، ووجنتاك قد تورّدتا. أرى بأنك حبلى"، قال وهو يمسك بعنقها، لم تعارضه، بل قالت: "اقتلني"...

تحسّس رقبتها، ولمس سلسلة الذهب، "لقد قتلت ابنتي، وسرقت ذهبنا، ثم هربت مع عشيقك"...

سمع أركان جلبة الخدم خارجاً، ثم سرعان ما طرقوا الباب "سأقتلك قبل أن يمسكوني"، قال وهو يجرّ كوهار آخذاً إياها خلف خزانة خشبية، "قلت لك اقتلني". توسّلت له "كنت أتمنى لو كان عندي سكّين؛ كي أبقر بها بطنك؛ لأقتل صغيرك، لكني أريد أن أخنقك، مثلما فعلت بمريم ابنتنا". حاول كوهار الصراخ، لكن أركان كتم صوتها واضعاً يده على فمها "قولي لماذا قتلت ابنتي؟". بكت، ثم أحاط أركان رقبتها بقوة بيديه كلتيهما، ثم أرخى قبضته، لكنها لم تقل شيئاً. تنفّست بصعوبة، ثم عاد، وأمسك رقبتها. شد أركان العقد، ولفّه حول عنق كوهار حتى بدأت تختنق، رفسته هي بكل قوتها، وجرحت بأظافرها ذارعيه المحيطتين بها. احمرّ وجهها، وشعر أركان بثقلها، وهو يشدّ بكل قوته على رقبتها. ارتطم جسد كوهار بالأرض حينما سقطت ميتة، نظر إليها نظرة سريعة، ثم خرج قافزاً من شباك الغرفة إلى الحديقة، ومن عبر السور مسرعاً راجعاً إلى قريته.

خرج هوسيب يبحث عن أخيه، سأل عنه البدو، فقالوا له: "قبل أيام، جاء فتى نحيف القامة، ووسمنا له أصابع يديه، غرزنا بالإبرة جلده، وعالجناه بالنيلج، وما إن اخضرّ وشمه حتى رحل عنا. بعد أيام، قاده بعض الرعاة إلى كريكور، رآه هوسيب من بعيد وناداه "أخي كريكور عد إلينا، فلن تصدّق مَن سترى! أختنا كوهار تعيش في الموصل بقربنا. هيا معي؛ لنرجع"... لم يقل كريكور شيئاً، وبقي جالساً لساعات طوال، ثم ركب دابّته، وانطلق. تبعه هوسيب عن مسافة، ثم رأى أخاه نازلاً عن بغله مقترباً من رجل، كان هذا الأخير على وشك أن يقطع شجرة. اقترب منه كريكور، وقال له: "ضع فأسك جانباً، إياك أن تقطع شجرة قبل أن يكون القمر بدراً؛ كي تضمن طراوتها، فلا ينشف الخشب مع الوقت، ولا تنس أن تزرع شجرة أخرى عوض هذه".

شكره الرجل، وقال له: "سأعمل بما قلت لي، أيها الصبي الحكيم"... ثم انصرف. وقف كريكور قرب الشجرة، ثم اقترب منها، وبدأ يهمس لها كلاماً، لا يعرفه إلاه. التفت، فرأى هوسيب واقفاً بقربه.

"كريكور أخي"...

نظر كريكور إلى أخيه، ثم سأله "ما هذه البثور التي على يديك؟".

"هذه ثآليل، لا أقدر أن أتخلّص منها"... قال هوسيب، وهو يتحسّسها.

"تعال معي عند شجرة التوت، فلا يوجد حدّ لحنان الأشجار التي فيها كل الشفاء"...

قال الأخ الصغير، ثم ربط دابّته عند شجيرة.

مشى كريكور، وتبعه هوسيب الذي غمرته السعادة حينما سمع صوت أخيه بعد انقطاعه عن الكلام منذ أن كان صغيراً. وقفا أمام بعض الأشجار. قال كريكور: "اكسر غصناً صغيراً من شجرة التوت هذه".

طال هوسيب طرف الشجرة، وكسر عصناً صغيراً، كما قال له أخوه.

"ستُشفى بعد قليل"، قال الأخ الصغير. "هذا مافعلته جدّتي مرة حينما كنتُ صغيراً، أخذتني إلى شجرة التوت التي عند جارنا الحداد، وشُفيتُ من الثآليل، هل تتذكّر بيت الحداد؟". فرح هوسيب حينما سمع كريكور يتكلّم بطلاقة، بل ويتذكّر تفاصيل الماضي، قال له: "نعم، أتذكّر". مشيا. وبعد قليل، نظر هوسيب إلى أصابعه، فإذا بالثآليل قد اختفت. فجأة شعر كريكور بحنين إلى أمينة زوجة الشيخ والأولاد وأخواته البنات، وقال لأخيه: "خذني إلى بيت أبي غازي".

ليلى قصراني: ولدت سنة ١٩٦٧ في محافظة الأنبار لأم وأب آشوريين، نشأت في بغداد حيث درست الأدب الفرنسي في الجامعة المستنصرية. حاليا تعيش في الولايات المتحدة في مدينة شيكاغو. تنشر ليلى العديد من مقالاتها في أكثر من دورية عربية، و«الطيور العمياء» هي روايتها الثانية بعد «سهدوثا» التي صدرت عام ٢٠١١.

المتوسط

قبل مائة عام تعرضت قرية طورباراز الأرمنية إلى النفي القسري والتهجير تحت بنادق الجندرمة العثمانية. سلسلة الآلام والمصير المجهول هو نصيب كوهار، الفتاة الأرمنية التي تدور حول حياتها هذه الرواية، حيث يسقط والدها مقتولاً في البرية، بينما تنفصل هي عن شقيقيها ووالدتها فلا تعرف عن مصيرهم شيئاً. إنها رحلة العذاب والمآسي التي ضربت بشعب الأرمن زمن الحرب الكبرى، حيث شهدت كوهار فصولاً عديدة من الأحداث الدموية في الطريق إلى المصير المجهول، حتى قسى قلبها على ابنتها التي أنجبتها من رجل غريب. بعد سنين تعثر كوهار على شقيقها الأكبر هوسيب، وشقيقها الأصغر كريكور اللذين كبرا في منزل الشيخ غازي، وهو العربي المسلم، الذي يقطن قرب مدينة الموصل. كيف جرت هذه الأحداث الرهيبة، كيف عاشتها كوهار؟.

هذه الرواية ليست رواية تاريخية عن مذبحة الأرمن وهجرتهم القسرية إلى العراق، إنما عن الطبيعة البشرية، عن هشاشة الإنسانية، عن القسوة والرعب والترهيب، وهي أيضاً، عن التسامح، والمصالحة، والمحبة التي يغدقها البشر للغرباء.

ISBN 978-88-99687-06-9